السلسلة الثقافية

التربية التونسية

في

الأمثال العامية



البشير الزريبي

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
فـــي 08 / جمادى الأول/ 1444 هـ
فـــي 02 / 12 / 2022 م هـ

سرمد حاتم شكر السامرانـــي

بسم الله الرحمن الرحيم

م. سرمد حاتم شكر

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي Telegram: https://t.me/Tihama_books

مقدمة

لعل أبرز ما يستوقف الباحث عن شؤون المجتمع التونسي منذ أن تكلل كفاحه البطولي بالاستقلال السياسي هو تغير أوضاعه تغيرا جذريا وتطور قيمه بحيث اصبح التونسيون ينظرون الى أمرهم وامر بلادهم نظرة جديدة ثائرة ، تحدوهم عزيمة ثابتة لتصفية حساب الماضي الموروث واستبقاء الاصيل منه وتطوير الواقع بحيث ينسجم مع سلم القيم الجديدة ويتيح للمواطنين ان يمارسوا فعلا حقهم في الحياة الكريمة والحرية ، كما يتيح للمجتمع ان ترسى قواعده على اساس العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص ومستوى ادنى من الازدهار المادي والمعنوي .

فالاصلاح الذي شمل مؤسسات الدولة والاحوال الشخصية وشؤون الاوقاف والاراضي الدولية والخاصة والمعاملات والصحة والتعليم والثقافة انما هو مستوحى من ثورة فكرية جامحة توفق بين حماس العامل الكادح وتؤدة المفكر الحصيف وهو نتيجة لتحول المجتمع التونسي من طور الانغلاق والجمود الى طور الانفتاح والحياة ، بحيث تزول أسباب الوهن والجمود العقلي

والتواكل والفوضى التى مهدت للاستعمار وحالت دون التمرد عليه ردحا من الـزمن •

وفى هذا الصدد من الاكيد أن ينكب الباحثون وعلماء الاجتماع على درس أحوال هذا المجتمع المتغير المتطور وتحليل ما يطرأ عليه وتبين خطوط التحول الكبرى وبالتالى اعانة المسؤولين عنه والموجهين والمربين خاصة عـلى مسايرة التاريخ الحتمى وتهذيب وسائـل العمل بحيث تحصل أكبر النتائج بأقـل ما يمكن من الاخطاء •

ولا شك ان الكتاب القيم الذى اتشرف اليوم بتقديمه يستجيب الى هذا الغرض ويسد هذه الحاجة ؛ فقد وفق الاستاذ البشير الزريبى بفضل ثقافته والمامه بأصول علم الاجتماع ومناهجه وشتى مدارسه وكذلك بفضل ما حصل له من واسع التجربة فى ميدان التربية بعد عديد السنوات التى قضاها فى التعليم ، وفق : اولا الى ادراك خطورة التربية وبعيد اثرها فى تكوين النشء واعداد جيل الغد • فالمجهود الجبار الذى سيبذله المسؤولون فى سبيل القضاء على التخلف فى مظاهره الاقتصادية والاجتماعية والثقـافية ورفـع مستوى المواطنين قد لا يبلـغ الغاية المرجوة اذا هو لم يقترن بمجهود مماثل لتـربية الجماهير بصفة عامة والشباب والاطفـال بصفة خاصة ، فاذا كان الاطفـال يولدون على الفطرة وآباؤهم هم الذين يكيفونهم ويقدونهم على قد ما يرونه مثالا كامـلا ومثلا أعلى ، فانهم يخضعون من حيث لا يشعـرون الى المجتمع ورواسب الماضى فى هذا المجتمع ومنها ما يحسن الحفاظ علية ومنها ما ينبغى التخلص منه • واذن فلا بد للمربى المسؤول على اعداد جيل الغد سواء كان وليـا او معلما أو مسؤولا فى احـدى منظمات الشباب او الرياضة ••• أن

يتفطن الى هذا الامر وان يعرف كيف يكسب ثقة الطفل ومحبته وان يكون مثالا حيا فى النظافة المادية والمعنوية وعلى قدر كبير من الذوق السليم والحماس للنظام الجديد فى أبعد معانيه وأشرف مقاصده .

ووفق المؤلف : ثانيا الى طريقة طريفة ناجعة فى معالجته للموضوع . فعوض ان يكتفى بعرض بعض النظريات الاجتماعية وتحليل بعض جوانب المجتمع التونسى تحليلا مجردا نراه يعتمد على اللغة الشعبية والامثال العامية باعتبارها شاهدا صادقا على نفسية المجتمع وأحاسيسه وقيمه العليا ؛ فهو يرجع اليها ويحللها وكأنه يسألها الخبر اليقين حول نظرة المجتمع التونسى الى مسألة من المسائل التربوية كأستعمال الضرب مثلا أو اللعب والرياضة او الاختلاط فى التعليم او الحجاب والسفور . ثم يبين ما يراه الموقف الصحيح الصالح من هذه العادات والاقوال المأثورة بالاستناد الى أضواء علم النفس وعلم الاجتماع وبحسب ما يقتضيه التطور والتمدن الأصيل وينسجم مع اهداف تونس الثائرة التائقة الى حياة أفضل واكرم .

واذا كانت الامثال العامية تعكس بأمانة مشاعر الناطقين بها وتعبر عن أحاسيسهم وتكشف عن مطامحهم ومطامعهم فان الاحتفاظ بما يتماشى منها مع مثلنا العليا الجديدة والاشارة الى ما يبدو منها مناقضا لهذه المثل ، مثبطا لعزيمة التجديد والتقدم ، من الاهمية بمكان ، خاصة اذا تذكرنا ان الطفل يتأثر بما يسمع ويشاهد لا من معلمه فحسب بل من أوليائه وخاصة من البيئة الثالثة أى الشارع وما فى الشارع من الوان التأثير والاثارة والاغراء وما فيه او ما يمكن ان يوجد فيه من وسائل التكوين والتربية والتوجيه الحسن الموفق .

وانها لطريقة طريفة حقا هذه التى استقام للمؤلف ان يعتمد عليها اذ اللغة تكشف « عورة » المجتمع وتصوره تصويرا أمينا وتعكس بتطورها أيضا تطور المجتمع ، مما نشاهده فى تونس اليوم حيث دخلت الفاظ وعبارات جديدة وقل استعمال أخرى وقد أشار المؤلف الى هذا • وحبذا لو اعتمد على نفس هذه الطريقة لدراسة مواضيع اجتماعية او اقتصادية أخرى مما ينير السبيل ويعرف التونسيين بانفسهم وبما ورثوه عن أجدادهم ويعينهم بالتالى على تحقيق هدفهم الأسمى •

ومهما يكن من أمر فان « التربية التونسية فى الامثال العامية » سدت فراغا وفتحت مجالا كبيرا لرجال التربية والتعليم واولياء التلاميذ واطارات الشباب للمزيد من الدرس والتمحيص وتبادل الرأى •

وكل ما أرجوه هو أن يحظى هذا الكتاب بالعناية التى هو جدير بها وان يكون فاتحة مباركة لسلسلة متواصلة الحلقات من الدراسات الاجتماعية والتربوية لما فيه خير طفولتنا التى هى ذخر الوطن وعماد مستقبله • وليس من الصعب على القائمين بشؤون التربية والتوجيه من التونسيين ان ينصرفوا الى هذا النوع من الدراسات الاجتماعية وان يشجعوا عليه ويرصدوا له الجوائز وبذلك يمهدون الى ازدهار علم الاجتماع فى وطن ابن خلدون •

محمد مزالي

مدير مجلة « الفكر »



تمهيد

حوالى منتصف القرن التاسع عشر جد فى عالم المعرفة حدث عظيم كان له فى شتى ميادين البحوث الانسانية يد طولى فى تجديد اتجاهها وتغيير دواليب الدرس والتنقيب فيها ـ فما ان طالعنا « **شارلس داروين** » « Charles DARWIN » سنة 1857 بكتابه الشهير فى التاريخ الطبيعى « **اصل الانواع** » « Les origines des espèces » حتى انطلق الفكر الباحث انطلاقة جديدة مكنت له فى مضمار الكشف والابتكار اذ زادته اصالة امعان ورجاحة تدبر وحصافة نظر وتعقل ·

ففى هذا السفر التاريخى العظيم يعلن داروين عن نظريته ذات الاشعاع الايحائى الخطير ، تلك النظرية التى شاعت وذاعت باسم **نظرية التطور** والقائلة فى ابسط حدودها : « ان كل كائن حى يتطور من الشكل البسيط جدا الى الشكل المعقد جدا ، وان كل مرحلة من مراحل تطوره تتوقف على المرحلة التى سبقتها بحيث لم يكن تطور الكائنات الحية امرا خارجيا عن ذواتها بل هو **حدث داخلى فى الكائن الحى ذاته** »

وبقطع النظر عن مدى صحة هذه النظرية او خطلها فى ذاتها فالذى لامراء فيه ان قيمتها او وزنها العلمى يتمثل على التحديد فيما ادخلته ـ هذه الوجهة العلمية فى فهم التطور ـ من اتجاه جديد على اساليب البحث العلمى والبحث العلمى الانسانى على الخصوص

فلقد استنارت الدراسات العلمية فى شتى ميادينها بوجهة داروين هذه ، واقتفى عدد غير قليل من رواد البحث الطبيعى والانسانى من بعد ائتناسهم بنظريته طريقته واسلوبه فى الدرس والتتبع المنهجيين ، وعلى التحديد اصبحت الروح العلمية شغوفة **بالاحوال البدائية** لكل الاحداث والظواهر وخصوصا الاحداث والظواهر الانسانية الاجتماعية لما يعتقد فى

تشخيصها وبحثه من عظيم الفائدة وجليل الفرص لفهم وتدبر الاحوال المعقدة لها ، الضاربة فى التشابك والتداخل ، البالغة من الغموض حدا تكثر معه الاحداس وتتزايد معه الفروض والاحتمالات المتكافئة ٠

وانه ليكفى ـ للتدليل على تقدم البحوث الانسانية بعيد ظهور نظرية داروين فى التطور الطبيعى ـ الوقـوف على ما جـد فى عالم التأليف مـن تصانيف علمية اجتماعية طيلة النصف الثانى من القرن التاسع عشر ـ فهذه التئاليف على كثرتهـا وتنوع مواضيعها بين القانون والتاريخ ، بين الثقافة والاجتماع كانت على العموم قد اتجهت بوحى من داروين الى وجهة جديدة فى بحوثها ولعلها واجدة فى آفاق نظريته مجالات للدرس والكشف واتجاهات مستحدثة فى الاسلوب والمنهج . وانك لتقتنع بهذا التأثر الجلى عند قراءتك عناوين هذه التصانيف الضخمة التى طـالعتنا بهـا الحـركة العلمية الاجتماعية فى الفترة الزمنية الموالية لظهور كتاب « اصل الانواع » ففى تلك العناوين ما يملى الاعتقاد بمدى التقارب فى الاتجاه وروابط المنحى فى الطريقة والاسلوب بين داروين وكل من هؤلاء المؤلفين الاعلام ٠

الـدراسـات النـظـريـة

وعلى سبيل التأكيد لـما كنا بصدد تقريره نعـرض لبعض الدراسات العلمية النظرية التى ظهرت بين سنة 1865 و 1890 والتى بدا على واضعيها شديد الاعتناء بالاحوال البدائية للحياة الاجتماعيـة ٠ فلقـد ظن هـؤلاء المؤلفون انهم بتعرفهم عـلى هذه الحـالات البدائيـة للحيـاة الاجتمـاعية يستطيعون تتبع التطور لهذه الحياة الاجتماعية نفسها فى مدارج رقيهـا الثقـافى ٠ وهكذا ان هم فعلوا ذلك ازدادوا بصرا وبصيرة بسير المجتمع والثقافة واكتملت بالتالى معرفتهم بقضاياه المعقدة الشائكة عموما ٠

ففى سنـة 1861 طـالعنـا الفقيـه القـانـونى « **سير هنرى مان** » SIR Henry Maine « بكتابه الشهير فى عالم القانون باسم « **القانون القديم** » ووالاه بتصنيف آخر سنة 1871 عنوانه « **المجتمعات القرويـة فى الشرق والغرب** » نحـا فيـه منحى دراستـه الاولى فى الاعتنـاء بالنمـاذج البدائية للحياة الاجتماعية : فى نظمها ودساتيرها ، فى نسقها ونواميسها المميزة لها ، فى عاداتها وتقاليدها المتوارثة ، فى دينها ومعتقدها ازاء شتى الشؤون الماورائية النظرية ، او الواقعية العملية ، فى فنونهـا الجماليـة ، او المهنيـة ٠

ثم هو ذا « **فستال دى كولانج** » « Fustel de Coulanges »
مؤلف « **المدينة العتيقة** » يكتب فى هذا السفر الجليل دراسة ظلت نموذجا لما سيجد من بعدها من تآليف مماثلة ذات اتجاه داروينى فى اسلوب البحث والتناول — وبعيد ظهور « المدينة العتيقة » بسنة اخرجت دور النشر كتابا للمحامى الاسكتلندى **مكلينان** « Maclennan » بحث فيه واضعه الروابط العائلية بعنوان « **الزواج البدائى** » . وفى نفس هـذه السنة اى عـام 1805 جـاء « **ادوار تايلور** » « Edward Taylor » بمبحث عظيم الشأن فى هذا الميدان نشره تحت عنوان « **ابحاث فى التـاريخ القديـم للجنس البشرى** » ثم والاه بكتاب « **الثقافة البدائية** » سنة ١٨٧١ —

وبهذه الصورة استمرت الابحاث العلمية الانسانية فى وجهتها الجديدة منفعلة بالنزوع الى القديم والى ماضى الظواهر مـوضع الدرس الاجتماعى على يد هانرى مرجان « L. Henry Morgan » . فلقد الف محامينا الامركى هذا كتابا فيما سنة ١٨٧١ بحث فيـه « **نسق روابط الدم والمصاهـرة فى العائلة الانسانية** » وعزز جانبه العلامة سير جيمس فريزر « S. J. Frazer » فى كتابـه الشهير « **الغصن الذهبى** » حيث تعمـق بدراسته هـذه بحث الحياة الاجتماعية عند البدائيين محللا فى ذلك على الخصوص الجانب العقائدى . ولعله انتهى من تحليله هذا — الى وضع مبادىء وقوانين مطلقة بقيت حتى الآن من اقوم وادق المبادىء والقوانين التى يمكن الاهتداء بها فى فهم تطور الناحية العقائدية . فى الفرد والجماعة الانسانية على السواء —

وكما رأينا فان كل هذه المؤلفات التى تقدم ذكرهـا تشير فى عناوينهـا ومحتوياتها الى هذا الولوع الشديد ، وهذا الكلف المقصود بالصور البدائية والحالات الاولى البسيطة لمختلف جوانب الوجود الاجتماعى . وانه بامكاننا ان نتخذ من عناوينها : الزواج البدائى ، القانون القديم ، الثقافة البدائية المدينـة العتيقة ... الخ مظهرا مـن مظاهر استصواب وجهـة نظر داروين واشياعه فى تفسيرهم المتطور لا فى ميدان البحوث الطبيعية وحسب بل حتى فى ميادين المعرفة العلمية الاجتماعية — ثم ذلك الاتجاه الجديد للبحوث الانتروبولوجية النظرية نحـو دراسة اصل الانسان وطبيعتـه ، ونحـو محاولة تدبر اصل الاجناس سيما فى اواخر القرن التاسع عشر وبدايـة العشرين لمثل هو الآخر لهذه الرغبة المستجدة والملحـة فى التعـرف على قوانين التطور الخاصة بالظواهر الاجتماعية وبالمجتمع عموما ، وفى هذا المنزع دلائل التأثر الواضح بمذهب التطور الداروينى .

هذا والى جانب تلك الحركة الفكرية النظرية التى عالجت قضايا المجتمع بالرجوع الى صورهـا الاولى البدائيـة وبالتفكير فى حالاتها البسيطة منـذ بدا ظهورها وحدوثها ، نشطت الدراسات الحقلية وهى التى يجريها العالم الاجتماعى على مجتمع القبيلة البدائية من اجل التعرف على نشأة الظواهر الاجتماعية وبالتالى للوقوف على قوانين تطورها ـ فمثل هـذه الدراسات يقوم بها العلماء عند نزولهم الى المجتمع وبالحياة فى معتركه السنين الطوال ليتم لهم الوقـوف على **الميكانيزم** الطبيعى الـذى يساعـد هذه المجتمعات البدائية على الحياة والاستمرار ـ فهم ان شئت يحاولون بكل ما يبذلونه من جهود وتضحيات ان يتبينوا كيفية اعتماد المجتمع البدائى على نفسه ، وكيفية سيره وتسييره لشؤونـه ، وايضا يطمحـون من وراء ذلك كله الى اكتشاف القوانين الطبيعية التى تسير بمقتضاها حياة هذه القبائل البدائية ممن ضلوا على الفطرة سواء فى افريقيا واستراليا او فى آسيا وامريكا ٠

ولنذكر بعضا من هذه **الدراسات الحقلية** التى تأثـرت واستوحت مـن نظرية داروين آفاقا فكرية ومنهجية للبحث الاجتماعى ٠ واول مـا ينبغى التعرض اليه بهذا الصدد دراسة قيمة قام بهـا علم مـن اعـلام البحوث الانتروبولجيا « **ايفانس ـ بريتشر** « Evans-Pritchard » على كل من قبيلتى « **النوير** » و « **الازندى** » وكلاهما باقصى جنـوب السودان ٠ ويلى هـذين البحثين الحقليين مـا كتبـه رائـد الانتروبولجيـا البريطانيـة « **راد كليـف بـراون** » « Radcliffe Brown » على مجتمـع **جزر الاندمان** فى المحيط الهندى ٠

ثم من بين المؤلفين الحقليين العظام « **مالينفسكى** » « Malinowski » فمما اضطلع به من بحوث قيمة دراسته الحقلية لقبائل **جزر التروبرياند** فى شرقى غينيا الجديدة ـ ولا يفوتنا ان نذكر من بين هؤلاء الاعـلام « **ريمون فيرث** » « Raymond Firth » نظرا لما اضافه الى الدراسات الانتروبولجية من دراسة ناجحة كتبها فى بولينيزيا حيال **مجتمع تيكوبيا** البدائى ـ ثم بامركا قام العالم الكبير « **لووى** » « Lowie » بعمل مماثل لما اضطلع به الاروبيون فى اواسط وجنوب افريقيا وايضا فى جنوب شرقى آسيا واواسط استراليا ـ فقد بحث **لووى** هذا القبائل البدائبة الموجودة بغربى امركا وهى : **هيتاتزا** « Hidatsa » **وبـلاكفوت** « Blackfoot » **وكراوو** (Crow)

وحاول بمجهوداته الموفقة الوقوف على طبيعة الحياة الاجتماعية فى ابسط صورها واوضح معالمها جريا على النظرية الوظيفية فى علم الاجتماع الحديث

نحـو الاهتمـام بثقافـة الجمهور

نخرج من هذا العرض الموجز ، لكل من الدراسات العلميـة النظريـة والحقلية ، التى عالجت قضايا المجتمع معالجة فيها من مmليات نظرية داروين الشىء الكثير ، نخرج من كل ذلك بتأكيد حقيقة هامة ، وهى ان دراسة الظواهر الاجتماعية ذات الطابع البدائى لمن اوكد ما ينبغى الاعتناء به من قبل الذين لهم اختصاص او شغف بمعالجة المشاكل الاجتماعية . ذلك ان البداية من الحالات البدائية فى محاولة فهم المجتمع تمكن من الوقوف على ثابت الحقائق وتساعد على بلوغ الارب من تشخيص الواقع الاجتماعى فى اعقد صوره ومتداخل مشاكله . ولنـا فى مواقف من تقدم ذكرهم من اعلام الفكر الاجتماعى قدوة حسنة ولنا ايضا فى هذا المنزع اقتداء بمجهودات كل من « **اميـل دوركايم** « E. DURKHEIM » فى محـاولتـه تطبيق النظريـات الاجتمـاعيـة العـامـة على دراسـة المجتمعـات البـدائيـة ، و « **لسيان ليفى بريل** « Lucien Levy BRUHL » فيما قام به من دراسة ناجحة عن المحتوى الفكرى لتلك التصورات الجمعية فى سلسلة من الكتب عالج بها الناحية العقائدية فى بنائها ومنطقها عند المجتمعات البدائية .

ثم ان الثقافة الحق فى نظرنا هى تلك التى تتخذ لهـا مـن الخصائص الشعبية مصدر وحى والهام ، ومجال عمل وبعث فى وقت واحد : وليست الثقافة ابدا ذلك النوع من التربية العالية التى يتحصل عليها بعض الناس من المعاهد الراقية او حتى بالمطالعة والامعان فى التنقيب والبحث ـ ففى نحلة من نحل الانتروبولجيا الاجتماعية ، ترادف كلمة ثقافة كلمة حضارة وعلى هذا الاعتبار يكون لكل مجتمع انسانى ثقافته الخاصة بـه ، وهكذا تصبح على هذا المعنى للزنوج ثقافة ، وللمتوحشين ثقافة لانه لا يمكن بحال من الاحوال تصور شعب من شعوب الدنيا دون ان تكون له مظاهر حضارية او ثقافية . ولعلنـا بايرادنا تعريف الثقافـة كما وضعـه **ادوارد تايلور** نستطيع **توسيع مفهوم العمل الثقافى ونزيل الغشاوة الضاربة على ابصار المتعالين فى الابراج العاجية حفاظا على ناموس الثقافة ... وابقاء على هالة الثقافة وابهتها ...**

يقول تايلور فى كتابه **المجتمعات البدائية** محددا معنى الثقافة كما ينبغى ان يتصوره الباحث الاجتماعى : « **ان الثقافة بمعناها الاثنوغرافى الواسع هى ذلك الكل المركب** « Complex Whole » **الذى يشمل المعرفة والاعتقاد، الفن وقواعد الاخلاق ، التربية والقانون ، العادات الاجتماعية والتقاليد المرعية وغير ذلك من القدرات والعادات الشخصية التى اكتسبها الانسان من حيث كونه عضوا فى مجتمع معين** » ومن هنا لا يمكن تصور مدلول الثقافة فى تلك الخصوصية التى دأب بعض المتعلمين على حصرها فيها بحيث لا تشير فى نظرهم الا لهذه الناحية الفكرية او الوجدانية او النزوعية التى حصلت عليها طائفة معينة من افراد المجتمع ـ فالثقافة الحق اولى ان يكون المقصود بها ـ على رأى تايلور ـ تلك الظواهر التى هى اكثر انتشارا واوسع مدى بين المجتمع • ولهذا اذا كان للطبقة المتعلمة فى بلادنا ثقافة مميزة ومتميزة فللسواد ايضا ثقافته المميزة والمتميزة ، واذا كان لتلك نفوذ وسلطان فلهذه ايضا نفوذ وسلطان ـ ومثل هذه العقيدة حدت بى الى كتابة هذه الفصول الموالية التى قصدت بها محاولة الكشف عن جانب من جوانب ثقافتنا التونسية وهو النظرة التربوية الشائعة بين السواد وما تمليه هذه النظرة من مواقف تربوية سوية ومرضية « ANORMAL » .

واذا دفع بى الى هذا العمل اعتقادى بجدواه وايمانى بجدته وطرافته معا ، فان الفائدة التى قصدت اليها ابتداء لم تكن قاصرة على الرجل العادى بل هى تجتازه الى عموم المثقفين التونسيين ، ذلك لان مهمة هؤلاء ومسؤولياتهم الجسام ازاء مجتمعهم لم تكن ابدا ميسورة ولا ممكنة ان لم يكن هؤلاء المتعلمون هم انفسهم قد اخذوا فكرة واضحة الملامح عن حدودهم الذاتية ، فى ماضيها وحاضرها ، فى صلتها بالمجتمع الذى منه الانحدار وله العمل من اجل نفعه النفع المرجى ـ وانه لا يكفى ان نكون على دافع متحمس وعلى رغبة متعطشة لنفع البلاد لان ذلك الدافع او تلك الرغبة ان هى توفرت بدون غاية واضحة فى ذهن اصحابها وبدون امتلاك الوسائل الممكنة من بلوغها تعد قوة عمياء ، كما ان الغايات السامية ان لم يتوفر لها الحماس الوقاد عدت هى الاخرى فكرا ومطامحا عرجاء ـ فالمهم ان تكون للمتعلمين المستنيرين باضواء المعرفة رغبة عتية لنفع البلاد ولازالة كابوس التخلف عنها ، مضاف اليها تصور دقيق وحصيف لانفسهم ، ولدورهم الحالى والمرتقب ، فى مجتمعهم وبيئاتهم الممتدة من على يمنتهم ويسرتهم •

فبمثل تلك الرغبة وذلك التصور يقوون على القيام بتشخيصاتهم الصادقة والعلمية لشتى نواحي النقص الواجب تداركه وبالتالى يستطيعون اصابة الهدف الذى نريد ونطمح اليه ، بعد ضبط الخطط للتنبؤات المراعى فى وضعها الممكن والمستحيل ، المؤدى وغير المؤدى من الوسائل والطرق ـ وهكذا ان نحن سرنا على هدى من هذا الحافز القوى ، وعلى تبصرة من تلك الغايات الغر ، وعلى فهم وتفهم لانفسنا وعلى معرفة كاملة بدنيا الاجتماع الذى نحن منه واليه ، قلت ان نحن سرنا على هدى من معرفة كل هذه الشؤون أمنا مغبة تخبطنا فى المحاولات الفاشلة وتحصننا من اشراك الاساءة فى موقف يراد منا فيه النفع والانتفاع لا الضرر والاضرار ٠

ولما كانت النخبة المستنيرة فى المجتمعات المتخلفة هى الموجهة المؤثرة فى اتجاهاته ومواقفه العقلية النزوعية ، فان ذلك التوجيه لايكون من التأثير الامثل الا اذا عم واتسع مداه داخل المجتمع او الوسط الانسانى ـ وبناء على هذا يتحتم النظر الى مهمة المنظمات الثقافية على انها غير محصورة فى خدمة طبقة معينة من المجتمع كأن تستدعيها دوريا لحضور المحاضرات ولمشاهدة المعارض او للمشاركة فى المهرجانات والمواسم الفنية وما الى ذلك من المناشط التى هى وقف على الخاصة والنخبة ، بل ينبغى على هذه المنظمات ويتحتم فى حق النخبة المسيرة لها ان تجتاز هذه الحدود الضيقة لخصوصية الثقافة ففى فعلها ذلك ـ لو انجزت ـ شمول الفعالية ، وبلوغ الارب على اوسع مدى واعم فائدة ـ وبهذا يؤول بنا الحال الى ضرورة السعى من اجل تصور الوضع الاجتماعى على حقيقته وواقعيته المعاشة بالفعل ، لان اولى خطوات التأثير على المجتمع محاولة فهمه وفهم معضلاته ، وبداهى الا تنبوء بما يزيل الآفات الا بعد تشخيصها على الوجه الحقيقى الصائب ٠

ولكم يعز على المرء ان يشاهد الى جانب ما جد بالبلاد التونسية من حركة فكرية نشطة ، ظهور حركة ثقافية بالمفهوم العلمى الاجتماعى تعمل على افهام الرجل العادى بعضا مما نوده له من حقائق ثقافية علمية ، او فنية مهنية او حتى تربوية عقلية ، تخصه وتحص مجتمعه ويمكنه الائتناس اليها وبها فى عقيدته وسلوكه ـ هذا من جهة ، ومن اخرى كم يهز المرء ان تقوم بالبلاد حركة علمية اجتماعية تعمل على تصوير واقع المجتمع التونسى تصويرا علميا يلائم مستوى المتعلم والمثقف الراقى ، اذ تتيح له فرصة الفهم الاتم لهذا المجتمع الذى يود فهمه فى اجلى نظرة ينبغى له فهمه عليها ـ وطبيعى مثل هذا الهدف المزدوج لا يتم ولا يتحقق الا اذا نزل هذا المثقف الراقى

الى حياة الناس .. حياة السواد كما يسمونها . ففى صنيعه ذلك تهيوء الظروف المساعدة على تدبر الواقع العيانى فى حالته العارية عن كل قناع اصطناعى وعن كل مملبات النفاق الاجتماعى المتداول ـ فهو ان اتبع هذه الخطة واتته الفرص لاعمال عقله فى المشاهد المحسوس من شؤون المجتمع وبالتالى تنبنى مساعيه وجهوده الناقعة على ما هو عليه هذا المجتمع بالفعل لا على ما خيل اليه او ظنه كذلك ...

ولا يفوتنى بهذا الصدد ان اشير الى ان مثل هذا العمل الثقافى المنشود كان قد تجدد ببلادنا التونسية على يد المستشرق الفرنسى **مارسى** « Marçais » بعد ان وقف عند **التيفاشى القفصى** فى مخطوطه « **نزهة الالباب فيما لا يوجد بكتاب** » وسار على خطاه الاب ديمارسمان « A. DEMEERSEMAN » مدير مجلة **ايبلا** « IBLA » فلقد حاول كل من هذين المستشرقين بعث الدراسات العلمية التحليلية للعقلية الشعبية التونسية ، واجتهدا بحق فى ان يمكنا التونسى وغير التونسى من اخذ صورة صادقة ودقيقة عن الواقع الاجتماعى التونسى فى جانب من جوانبه المتعددة والمتباينة ـ ومن البداهى ان كان عملهما فتحا للطريق وبداية للسير ، وليس من المعقول فى شىء ان يكتفى بما تم انجازه من بحوث اذا علمنا ان المجتمع يتغير وان تعدد البحث فيه يزيدنا امكانية معرفة وتبصر بمجرى الامور فيه . هذا الى ان شؤون المجتمع هى من التعقيد والتداخل بحيث لا يمكن القول بكمال اى دراسة مهما كان مستوى شمولها ومهما كانت حصافتها ودقة مباحثها .

وفى نهاية هذا التمهيد يجمل بى ان اشير الى تواضع الرسل الانبياء فى تبشيرهم بالمبادىء التى نادوا بها وحاولوا بعثها فى حياة الناس ، والى تواضع وتضحية امثال الانبياء والحكماء من رسل المعرفة والمذاهب الفكرية الكبرى امثال كونفوشيوس وسقراط ، وأئمة الاسلام ، وأئمة الاصلاح الدينى والاجتماعى ، منذ بدء الخليقة ـ فلكهم اتبعوا سنة الاتصال المباشر بافراد بيئاتهم ، وكانهم فى منزعهم ذلك على ايمان راسخ بان العقلية البدائية فى اى مجتمع هى اللبنة الاولى فى هيكله الشامخ ، والا امل فى اصلاح ما اختل من توازن القوى التى هو عليها الا بالرجوع رأسا الى الاسس الجذرية لحاضر حياته . وانا لعند هذا المعتقد المبدئى وانا لعلى ايمان كلى به عند ما عقدنا العزم على تحرير هذه الفصول التى آمل بها شحذا للنزعة الثقافية فى مفهومها الاثنوغرافى ، وتعزيزا للدراسات اللغوية الاجتماعية التى كسدت سوقها لا فى المجتمع التونسى فقط بل فى المجتمع العربى عموما .

النهضة التونسية في اليقظة التربوية

لا شك ان المجتمع التونسي يسير سيرا حثيثا في مختلف ميادين الحياة والنشاط ، تشحذ همته توجيهات قادته ، وتستنهض جهوده وقواه رغبته في تأكيد ذاته وبالتالي فرضه لقيمتها بين شعوب الدنيا وامم العالم – ولئن كانت الطاقة الحيوية التي عنها ينزع هذا المجتمع ، وبها ينافس ويناضل متقومة بمعاني الطموح الاصيل او بمشاعر النقص والتخلف ازاء ما نحن فيه من خصاصة واحتياج نسبيين ، فانه مما لا يتطرق اليه الشك ايضا ان تلك الطاقة الجماعية – على ما هي عليه الآن من فعالية وسداد اتجاه – لفي حاجة ماسة الى مقومات او ديناميات اخرى نحن عنها غافلون او معرضون ..

ذلك ان التونسي ان استطاع باثر انتفاضته المباركة ان يحقق لنفسه ولامته الشيء الكثير من مطامحه وامانيه التي لا تنفد ولا تفنى ، وامكنه كذلك ان يؤكد جدارته لا بالاستقلال فقط بل بالتقدير والاعجاب الامثلين ، بيد انه مهما اوتي من امكانيات التقدم والتطور فانه لا يستطيع ولن يستطيع التجرد من بعض ذاته التي هي بين جنبيه ، والتي هي في تكوينها متأثرة بمؤثرات وعوامل تكوينية تربوية منها الصالح السوي والطالح الرديء – ولو انه تمكن من ردع الرواسب الوبيئة المنحدرة عن الماضي السحيق احيانا ، وواتته امكانياته الجديدة ليقف في وجه تطورها واستبدادها به ، غير انه يصعب عليه ان لم يتعذر كلية التجرد والتخلص من تلك الرواسب المعيقة او الضارة به وبحيويته كفرد او كجماعة بشرية.

وكما هو بداهي ليس الفرد منا الا وحدة من وحدات المجتمع الذي ينتسب له ، وان هذه الوحدة هي على الدوام مؤثرة في محيطها الاجتماعي متأثرة به في الوقت ذاته ، ومن هنا صح القول بتبعية الطاقات الفردية للطاقة والقوة الجماعية وبالتالي تأثر هذه بتلك الى اقصى الحدود والابعاد – وان نحن امنا باختلاف صفات المجتمع ككل ، عن صفات افراده كوحدات فردية ، بحيث لا تصح المقارنة ولا المقايسة بينهما ، فان الحديث عما يمس افراد المجتمع ، به قطعا ما يفيد هذا المجتمع ذاته ، وان التحاليل والمباحث التي تخص الافراد المنتسبين الى مقومات بيئية واحدة ، يتضمن حتما جم الفوائد العائدة بالنفع على ذاتية الهيكل العام للامة –

وعلى هذا الاساس اذا كانت العلاقة الرابطة بين الفرد والجماعة هى من الوثوق الذى ذكرنا فهلا بحثنا طاقتنا الاجتماعية من خلال وحداتها التى منها ائتلف وتكونت ، وان كنا بذلك نعاكس اتجاهات منهجية لا ترى السداد فى هذا الاسلوب ولا ترى التوفيق فى هذه الطريقة ـ اجل ان الفرد وحدة ان انضاف لها شبيهها تم الاجتماع ولكننا نـرى الفرد فى ذاته وحـدة لا تتجزأ ، وكلية ضمن مقوماتها الامس الغابر وما بهذا الامس من مؤثرات مختلفات ـ وانك لعلى صواب ان انت ذهبت الى ان عقلية هذا الفرد وكل ما تتقوم به ذاته من طباع وميول وعواطف قد تشكلت جميعـا بقيم شتى تختلف ـ ان قليلا فكثيرا ـ عـن قيم الساعـة الراهنـة ـ وكما انصهرت شخصية هذا الفرد فى ظل عـادات اجتماعية واتجاهات مبدئية وتـربوية هى الاخرى تتباين ـ فى قليل او كثير ـ مع ما هو مأخوذ به الآن من افراد بيئته ، من ضروب الاتجاه العقلى والتربوى ، الا ان هذا التغاير والاختـلاف المعترف به مهما كانت درجة شموله فـانه لا يبلغ الحد الذى ينسخ فبـه الجديد القديم والحد الذى يستحيل فيه القديم استحالة تامة وكلية ليحل محله الجديد المتخير او الملى على حياة الفردشعوريا او لا شعوريا ٠

اننا نعنى ـ بهذا كله ـ تأكيد حقيقة بعينها وهى ان التطور الذى يعرو الفرد فى ظل التطور الجماعى لا يمكنه الاتيان على رواسب مـاضى الفـرد التكوينى بحيث يجتثها كلية ، بين عشية وضحاها فتضمحل اضمحـلالا تاما تنقطع به آثارها فى نوع وكم اندفاعنا وطاقاتنا الفردية والجماعية ـ فالاكيد الاكيد ان لتلك الرواسب ، سعيدها وشقيها ، تأثيرا يتمثل فى انحدار ما لا يمكن دفعه من نزوع نفسى يفرض على صاحبه فرضا فيتأثر به ، ويستحوذ عليه وعلى بوادره فى التو ، على الرغم من تباعد الماضى وعلى الرغم من ملابسات الساعة ، وما تضمنته من قيم مستحدثة قد يكون هـو نفسه ممن نادى بها ولها تحمس آخر الامر ٠

تصفيـــة الحساب التـربـوى

وهكذا نخلص من بيان هذا التكامل الذى تخضع اليه وحدة الفرد الى ان الطاقة الحالية للمجتمع التونسى فى حاجة ملحـة الى مراجعـة ماضيهـا التكوينى عن طريق غربلة الماضى التكوينى لوحداتها ولبناتها التى منها وبها ائتلفت وانبعثت ٠٠٠ ونودها مراجعة حصيفة وعلمية ـ لا خطابية نظرية

ليتم بها تصفية الحساب القديم ولتتهيأ بالتالى الظروف المواتية لبناء اسس جديدة نهيئها نحن انفسنا لاعداد الجيل الصاعد اعدادا يماشى مطمحنا فى ان نراه نشطا خلاقا على مستوى غير الذى نحن فيه بل اكثر فعالية ، وانبل حسا ، واوفر جدوى ... وهكذا ـ بالاستناد الى هذه القاعدة ـ اذا نحن رأينا فى طاقتنا المتقدة حاليا مطعنا يتمثل فى مخلفات الامس الزائغ ، وفى ادران الماضى التكوينى التى ليس فى الامكان محوها وازالتها ازلة تامة فاننا نقوى الى جانب ذلك القصور الذاتى ـ على انشاء طاقة جيلنا المقبل على **اسس تربوية سليمة** خلوة من جهالة الماضى ، وبعيدة عن اعوجاجه وانحرافاته ان لم تكن متقوية بجدوى الدرس وبحصافة المعرفة .

ولما كانت هذه الغاية من الاهمية التى ذكرنا فليس من سبيل لبلوغها سوى المضى قدما نحو تصفية الحساب التربوى القديم . وان انت تساءلت عن المقصود بهذه التصفية على التحديد ، فليس المعنى بها سوى **نقد الدولاب والمعتقد التربوى** القديم ، نقدا بناء يقوم به اولئك الذين استناروا بنتائج البحوث والتجارب الحية ، اولئك الذين مارسوا القضاياالتربوية قديمها وحديثها فى شىء من الولوع والامعان الامثلين ـ وبداهى ان هذا النقد البناء لا يتأتى ابدا من غير المختصين ولا من اولئك الذين هم على غرار بعض من رجالات العهود الغابرة فى اخذهم الشؤون التربوية بفكر مرتجل او بنظرة فلسفية ليس بها من واقعية النظر اى شىء ـ ولعله من المؤسف حقا ان هذا النفر من المفكرين فى شؤون التربوية لا يخلو منهم عصرنا الحاضر فهم على تجاهل او جهالة بينة عند ما يتملون فى معالجتهم القضايا التربوية عقلا لم يكن مجربا قط ، ولم يكن ابدا قد مارس التجارب المخبرية ، ولم يكن ايضا مطلعا على معطيات البحوث العلمية والتجارب المجراة فى ميادين العمل التربوى ـ وعجيب منهم الاعتداد البالغ بهذه الاحداس النظرية ، واحيانا الاستناد الكلى الى الاوهام والهلاوس ذات الاغراء المطلسم للاحساس والافئدة ـ فهم على الرغم من عرض بضاعتهم هذه العرض اللائق من حيث التنميق والتزويق اللفظيين الشكليين ، نراهم بعيدين كل البعد عن واقع الناس وشؤونهم الفكرية ومقدراتهم الفطرية والمكتسبة ـ ذلك لانهم يتحدثون عن قضايا واقعية بنهج جدلى يطن طنينا يحسبه الضمئان ماء وليس هو الا السراب او السفسطة المخدرة للاحساس ـ وانه لمن الروح العلمية ان يمسك المفكر النزيه عن الحديث فى قضايا واقعية يستدعى علاجها وتحريك

السواكن فى شؤونها تجربتها عن كثب ودراستها الدراسة العلمية الحق وان يمسك عن معالجتها ما لم يكن وضعيا فى النظرة اليهـا ، مـا لم يكن تجريبيا فى معالجتها ، ما لم يكن علميا استقرائيا ... اما ان يهدف المرء الى تطويرها والتأثير فيها بالمنطق الخطابى وبالبحوث الهامشية الضاربة فى الخيال الشعرى والزخرف اللفظى فهذا مـا لا يتقصده عـاقل ومـا لا يصيبه متعقل ـ ويقينا ان حصاد مثل هـذه الجهـود المتجهـة فى هـذه السبيل لا يكون سوى الامتاع واثارة الاحاسيس المتبخرة مع تبخر اللحظة التى جدت فيها ـ اما انها تقلب اوضاع الفكر وتحدث ثورة عقلية فهذا يكون فقط بتقديم الغذاء المبدئى الصالح للمشاكل المعاشة والتى هى متبلورة فى حياة الناس ودنياهم العائلية ، على ان يتم ذلـك بالوسيلـة الميسورة والمتداولة ممن يوجه لهم التحليل وتساق اليهم الحلول ـ وانـه لينعـدم التأثير المرجى ممن يبحث ويدرس اذا هو جانب واقع دنياهم او هو خاطبهم فى شؤون حيوية تخصهم بمنطق نظرى تجريدى او بلغة منمقة اللفظ مدبجة اللهجة بما يجعلهـا تبتعد عن الموضوع والهدف الذى قصد اليـه صاحبهـا ابتداء ـ ولكم يود لى ان اشير بهذا الصدد الى ان الجمال فى العرض قـد يؤدى الغلو فيه الى مسخ فى تصوير الواقع ، وان البيان الساحر قد يؤدى الولوع به الى حد الغموض والتمويه احيانا كثيرة ـ وبهذه المناسبة سألنى احدهم عن اهمية ووقع بعض الاسمار التى تعالج معضلات تربوية باسلوب سحرى من حيث الاستعارة والقوة فى العرض قلت له : « افهمت انت المربى محتوى هذه الاسمار ؟ » اجاب نافيـا . فعقبت : انت المعلم النـاجح فى عملك التربوى لم تفهم هذه الاسمار فما بالك بالاباء العاديين والامهات التونسيات اللائى يساق لهن ـ قبل غيرهن ـ مثل ذلك الكلام المستوحى من كتب الصحة العقلية ـ قال : لا اظن ان الاوضاع العقلية لمثل اولئك الاباء تتغير ما لم نبسط لهم تلك الحقائق بما يجعلهم يأنسونها فى يسر واقتناع ـ اجبته معقبا على ملحظه الذى استصوبته : ان الموقف التربوى لا يتأثر قطعا باثارة الانفعالات والحاسة الجمالية وانما **باعادة تنظيم الابنية العقلية الخاصة بعملية التربية وبوسائلها وطرقها** وهذا ما لايكون ان نحن احجمنا عن مراعاة مقتضى حال المستمعين او القارئين من مربين ومربيات ، وعلى الخصوص الاباء والامهات العاديين لان هؤلاء هم الكثرة الكثيرة ، ولان هـؤلاء هم قبل غيرهم الاحـرى والاحـوج بالتوجيـه والتنوير التربويين ـ

اهميـــــة التجـــريـب

وانه لما يدخل فى نطاق التصفيـة للحساب التربوى ، الى جانب النقد البناء الذى كنا بصدد الاشارة الى طبيعته آنفا ـ العمل التجريبى ـ فلقد اضحت التربيـة علما تجريبيـا ، ومتى كانت التربية قـد تطورت حقـا بمعطيات العلوم التجريبية امثال علوم الحياة والفزلجة والنفس فلقد دانت هى الاخرى بالتجريب والتجارب واصبحت آخر الامر اقرب منهـا الى الاقيسة والضوابط المادية ، والآلات والاجهزة منهـا الى النظر المجـرد والافتراضات والنظريات ذات الرواء الصورى ـ وحينئذ لا بد من القول بضرورة التجارب فى حقل التربية التونسية ، ولا بد من اجراء البحوث الحقلية التجريبية للتعرف على طبيعة الذكاء التونسى وللوقوف على ملامحه فى خصائصه ومميزاته البارزة. ففى مثل هذا التعرف العلمى الرياضى يتأتى النفع الذى لا يقدر والفائدة التى لا تحصى ـ ولئن انت ذهبت الى الاستنجاد بنتائج التجارب المجرأة على المجتمعات الاخرى ليتم بها الانتفاع والاهتداء فى تسيير شؤون التربية بمجتمعنا ـ قلت لئن فعلت ذلك لوقعت حتما فى اخطاء عاجلة او آجلة ، ذلك لان البحوث الانسانية التى اجريت فى وسط اجتماعى معين او بيئة انسانية محـددة لا يتأتى الانتفـاع بها من سواهـا ، هذا لان الوحدات الانسانية المتباعدة فى مناحى الفكر والثقافة معتبرة كنماذج فريـدة فى انماط تكوينها ، وبالتالى فان معطيات التجريب على واحدة منها قد لا يواتى ولا يصدق على غيرها ـ

ومن هنا ان نحن دنا بالحقـائق التجريبيـة فى شؤون التربيـة ، وان نحن نوهنا بصدق وبجدوى التجريب فهذا يسوقنا الى القيام بالتجـارب على بيئتنـا التونسية لا الى الاقبـال على تجارب المجتمعات الاخرى ، بأمل الاستفادة منها والائتناس بها فى التوجيـه ، وفى ضبط الخطط ، او فى رسم البرامج والمنـاهج .

ولك ان ترى تبجيل الاهم على المهم . ولك ان تذهب الى اننا بحاجة الى ما هو اوكد من هذه التجارب النفسية التربوية ، ثم تخلف الامكانيات او انعدامها لمبرر كاف يجعلنا ، احببنا ام كرهنـا ، عـازفين عـن البحـوث التجريبيـة ـ ولكن مهمـا تكن حال المجتمعات المتخلفة ، ومهما كان قصورها المتمثل فى قلة ما لديها من فنيين اكفاء ، وقلة ما لديها من ارصدة مـاديـة

فان الخطورة كل الخطورة ان يشغلنا حاضر عن قادم وان نحرم نحن وابناؤنا من الفوائد الجمة التى قد تكون بقيام **حركة الاقيسة العقلية التونسية** ٠ فمما لا يتطرق اليه الشك عندي ، ان هذه المقاييس انقننت على بيئتنا **تجريبيا** لامكننا بها وبها لا غير حث الانتاج القومى وتوفير الجهود وجلب الربح الوافر فى ميادين الصناعة ، وبها لا بسواها نتفادى الاخطاء الناجمة عن التقديرات الذاتية ، وبها ايضا نتوخى الصدق والدقة فى احكامنا على وحدات الفصول المدرسية حتى نتمكن من تعيير مقدرات التلاميذ تعييرا صادقا فنستطيع على ضوئه تجميع المتجانسين منهم مثلا فى مجاميع متقاربة ، وبذلك الاخذ بمبدأ تربوى مكين ـ ثم تذكر الفائدة الفنية والتنظيمية التى تحصل عليها ميادين الاتجار والجندية عند اقبالها واخذها بمعطيات هذه الاقيسة العقلية التى عم التعامل والاهتداء بها فى شتى انحاء العالم المتمدين ـ

الاهتمام بالتربية العائلية

انتهينا فيما تقدم الى اهمية التضحية فى سبيل التجارب الحية ، وعلى الخصوص فى ميدانى : التربية والتوجيه المهنى ، او ان شئت قل فى نطاق شؤون التوجيه التربوى عموما ٠ فلكى ينشأ الجيل على اى معنى من معانى التوجيه ، وعلى اى قيمة من القيم الروحية ، ينبغى لكل معنى بالامر ان يكون توجيهه ذلك معتمدا ـ بالدرجة الاولى ـ على معطيات التجربة الحقلية المجراة داخل المجتمع الانسانى المستهدف بالاصلاح والترقية ـ وانه لطبيعى ان تتأتى تلك التجارب من رجالات الاختصاص فى هذا الميدان بما لا يعفى المسؤولين عن التوجيه ، من ان يصخوا للمختصين الفنيين دواما واستمرارا لكى لا تزل بهم الاقدام ، ولكى لا يقعوا فى اخطاء فنية تجعل مجهوداتهم فى اجتهادهم فاشلة النتائج ان عاجلا او آجلا ـ

ثم لا بد ايضا ـ الى جانب الضرورة التجريبية ـ من ان تنخل الاوضاع التربوية باعمال الرأى فيها ونقدها ذلك النقد البناء ، حتى نصل الى هدفنا من خلق الطاقة المثالية فى هذا الجيل الصاعد الذى نعد انفسنا مسؤولين عن ماضيه فيما سيرالى من ايامه القادمة ـ على ان الافراد ، اذا هم ساهموا فى نضال التصفية والنقد ، واضطلعوا بمسؤولياتهم الجسام فى هذا الميدان الشائك ، فانه يتعذر عليهم ـ مهما كانت مؤهلاتهم العلمية والشخصية ـ ان يقلبوا الاوضاع التربوية رأسا على عقب ٠ وايضا فانه يتعذر الوصول الى

نتيجة تجريبية بالمجهودات الفردية لان التجارب فى هذا الصدد عمل جماعى ، تستعين عليه وتتعاون على القيام به زمر من ذوى الاختصاص والخبرة ممن لهم كفاءة بشتى فروع المعرفة . فمن علماء نفس الى علماء تربية ، الى علماء نفس الطفل ، الى علماء اجتماع الى علماء احصائيين ، الى اطباء ، الى علماء وظائف الاعضاء ومن الى هؤلاء جميعا امثال فقهاء اللغة وخبراء فى الاختبارات النفسيـــة .

هذا الى ان تأكد النقد البناء على النحو الذى اشرنا ، وعلى النحو الذى اومأ اليه زميلنا المحجوب بن ميلاد فى كتابه « **تحريك السواكن** » يعد فى نظرنا متمما للضرورة التجريبية ان لم يكن متوجا لها آخر الامر — ولعل اهم ما نجنيه من تلـك البحوث النقديـة العامـة ذات الاتجاه البناء الواضح فائدتان اثنتان :

الاولى : ما قد يحصل عليه الموجهون التربويـون مـن فكر اصلاحيـة واتجاهـات تخطيطية وعمليـة توحى بهـا قراءتهم لمن كلفوا انفسهم تلقائيا عناء البحث الوضعى ، ومشقة الملاحظة العلمية المفضية بصاحبها الى ازالة حجب الواقع وتشخيصه ، وبالتالى الى رسم التنبؤات الصائبة .

الثانية : فائدة تنويرية تنجر عن الآفاق الذهبية المتولدة عـن قـراءة العمل النقدى من عموم الناس — فالى تلك الاستفادة التى يجنيها رجالات التوجيه من خلال المحاولات النقدية تذكر الفائدة التثقيفية والدعائية — ولقد تعم هذه الفائدة وتبلغ مستواها الامثل فى الانتشار ، اذا روعى فى اسلوب عرض النقد التربوى مقتضى الحـال ، مقتضى حـال الاوساط الاجتماعية عموما ، والاوساط العـائلية على الخصوص — وبـداهى ان هـذه الاوساط تهتم اكثر من سواها بمشاكل التربية ومعضلاتها ، ويهمها — قبل غيرها — الاطلاع على حلول ما يعترضها من مشاكل الابناء ، وعلى اراء المفكرين وذوى الاختصاص فيما هى فيه من شؤون تربوية ، وفيما هى آخذة به من قيم روحية سامية او تقليدية باهتة —

بين التجـديـد والتقليـــد

اننا بهذا العمل النقدى الذى سنحاول القيام به فى هذه الفصول الموالية سنساير المواقف التربوية مسايرة نتتبع فيهـا النصوص الحكميـة التى تستند اليها هذه المواقف ان هى لم تستوح منها ابتداء — وستكون غايتنا

من تحليل هذه النصوص ، وبالتالى من نقدها ونقد مملياتها الخروج فى النهاية بنعوت ومميزات نحاول الحاقها بتربيتنا العائلية عن بصيرة وبينة ... وسنذهب ـ ما حالفنا التوفيق ـ الى تقدير وتقييم تلك المواقف المربية المستوحاة من خلال ما يعنونها من نصوص حكيمة ، فنحسن الحسن القيم ونقبح الردىء الابتر على ضوء التطورات الحديثة التى آل اليها المجتمع الانسانى المعاصر ـ وهكذا سوف لا نطبع عملنا هذا بنزعة كلها التمجيد والتهليل والتكبير ، فننساق مثلا الى معالجة عاداتنا وتقاليدنا المجدية المواتية بله المزكاة من قبل الاتجاه التربوى الناضج ، وانما سنحاول مع ذلك ، الوقوف بالبحث والتحليل والنقد على تلك الاثار الحكمية التقليدية المومئة الى تقاليد بالية ، وعادات جافية متخلفة ، تلك التى اثبت التطور العقلى ، والمذهبى التربوى ، عقمها وعقم اثارها فى تكوين الناشئة ، والتى لا نرى فى المحافظة عليها الا اعاقة للتقدم وعرقلة له .

هذا ولما كان لمنطق التقاليد والعادات المتخلفة اكبر الخطر على تكوين الجيل الحاضر مثلما كان له خطره الجسيم على تكويننا الماضى وحاضرنا المعاش ، فان الخطر كل الخطر فى اعاقة ذلك المنطق **لتطورنا العقلى المستقل ،** وبالتالى وقوفه فى وجه نشوء امكانيات جديدة للخلق والابداع فى شتى مناحيه ووجوهه ـ ثم ان هذه الاعاقة لكافية وحدها لتكون مبررا للدعوة الصريحة القاضية بتجنب والغاء التعامل على اساس المعايير التقليدية المفلسفة او التى آلت الى الافلاس آخر الامر . وانه لامر طبيعى ان يكتسح التطور الواعى مثل هاتيك المعايير ، وانه لمن المعقول جدا ان يطوى التجديد القديم او بعضا منه ـ ومن هذا البعض تلك الحكم الحاثة فى توجيهها الى عادات متنكبة تتعارض تعارضا صريحا مع معطيات العلوم الحديثة ـ وتلك الحكم التى تحول بين الفرد وبين امكانيات الخلق المبدع ـ فلولا مزيد من الحرية العقلية ولولا الاستقلال وعدم الاعتماد لما جاءت اجواء الانتاج الاصيل المتميز بطابع الجدة والطرافة ـ وانه لمن المسلمات البداهية ان يستصوب فك قيود الاتباع والاتكال على سداد التوجيه التقليدى هكذا فى غير ما بينة ولا استبصار بمحتواه ـ

ولو اننا عملنا على اجتثاث مثل هذه القدسية التى حازتها آثار ومخلفات العقل البدائى باوساطنا التونسية ـ وعلى الخصوص باوساطنا العامية ـ لكان فى اعقاب هذا الاجراء تهيئة الظروف المواتية والخلاقة للطاقة والحيوية وبالتالى للانتاج الامثل من شباب غدنا .

اننا نجد انفسنا بازاء تراث ضخم من هذا القبيل نريد ابادته وزواله لا لانه قديم او موروث او تقليدي بل لانه بائد ومتخلف ، ونحن **على كلف بالفضاء على التخلف** في كل الميادين ـ هذا وان نحن تعلقنا بزواله وازالته فلاننا استصوبنا تعويضه بقيم ومقومات جديدة استوحيناها من آفاق المعرفة العلمية التربوية ، ومن حنكة العلوم والمعارف كبدائل عما هو بال بالضرورة من تلك القيم التي انحدرت عن الماضي السحيق وما كان لروح العصر ولا لمطامح شباب العصر ان يؤمن بها ولو جببناها له الوسائل وبمختلف المغريات ٠

هذا ولامراء في ان تراثنا التربوي المتوارث به ما يمكن استصوابه واستحسانه ، لماشاته محتوى دساتير التربية المعاصرة ، ولكن الى هذا يوجد شقص عظيم من هذا التراث اقنعنا التقدم العرفاني بفساده وتخلفه ، الامر الذي يحتم القول بضرورة التنحي عن الاخذ به والاعتقاد فيه اصلا ، اخلاصا منا للحق واحقاقا منا له ـ ولعله ليس من المنطق في شيء ان يمتدح القديم لقدمه ، وان يذم الجديد لجدته جريا على ملحظ ابي العلاء في قوله :

ولــــع النـاس بـامتــداح القــديم

وبـــذم الجـديـد غـير الـذميـم

وانما النظر ـ اولا وآخـرا في جـوهر القيم ـ في ثرائهـا وخوائها ، في ملاءمتها لروح التطور ام لا ، في فعاليتها او افلاسها بقطع النظر عن مأتاها وامدها في البقاء ٠



نفوذ الأمثال العامية

مما ليس فيه شك ان مواقف التوجيه التربوى بعائلاتنا تتاثر تأثرا بالغا بمثل هذه الحكم التقليدية المتوارثة جيلا عن جيل منذ اقدم العصور وابعدها ــ ومثل الذين يقصرون معنى الثقافة على هذا اللون من المستويات الفكرية الراقية كمثل الذين يوقفون معنى التربية على عملية التوجيه المدرسى فى برامجها التى هى بمنأى عن حياة الاطفال وعن اجواء اسرهم قبل مثولهم الى المعاهد المدرسية . وبداهى ان الطفل منذ فجر حياته تملى عليه المواقف املاء ويعامل بمنطق يستمد قواعده من هذا الدستور التربوى المتمثل فيما نسميه بالحكمة الشعبية او التقليدية ــ وعلى الرغم من **تفاوت اوساطنا العائلية** فى مدى تأثرها بهذا المنطق التقليدى المتوارث ، فالملاحظ الى جانب ذلك ان الخبرات الطفلية تبقى شديدة الايحاء على الافراد مهما كانت مقدراتهم الذهنية التى سيكتسبونها ، وسيحصلون عليها فى مدارج التعليم والحياة ــ فكما تميل نفوس النخبة الراقية فى شتى البلاد الى التحدث مع اهليهم واترابهم باللغة التى الفوها والفتهم منذ مراحلهم التكوينية الاولى ، لغة الام والخادم ، كذلك نجد ميلهم التلقائى ، للتأثر بالحكم التقليدية على انها تتضمن قضايا مسلما ويقينية ، واضحا بينا فى حياتهم وانا لنجد ميلهم هذا وضاء الملامح باديا فى سلوكهم ، فى محادثتهم العائلية ــ ففى كل المواقف التى يكون لها شبه بماضى الخبرات والتجارب السابقة ، تهب بذهن الفرد منا هذه القواعد المقننة للسلوك التى كنا تطبعنا عليها وتشربنا ناموسها بالتربية منذ البداية ــ وانك لترانا نستشهد ونتمثل بها بطريقة آلية فيما بيننا وبين انفسنا ان لم يكن ذلك فيما بيننا وبين اصدقائنا عند الحوار او النقاش ــ هذا ولما كانت هذه الثروة الهائلة من الحكم التقليدية مستسخفة فى جوانب عديدة وبالخصوص من قبل اولئك الذين حصلوا على ثقافة راقية او وهبوا فطنة فائقة ، فليس فى هذا ابدا تنحى اوساطنا الاجتماعية او العائلية عموما ، عن الاخذ بها وبممليات هذه الامثال الدارجة والمتناقلة بين الاجيال فى شىء من التواتر الموصول الى ان مثلت بين ايدينا ــ ثم نحن ان لم نجد لهذه الامثال مرجعا او قاموسا جامعا لها ، سوى هذا السماع الفاشى وهذه الرواية المعنعنة بين الكبار والصغار فان المسلم به ــ

والحالة هذه ـ هو ان تكون هذه الاثار المتواترة عرضة للتغيير والتحريف سواء فى مبناها الشكلى اللغـوى ، او فى محتواهـا الفكرى ، بحيث نخطىء ـ استنادا على هذه الحقيقة ـ ان نحن ذهبنا الى ان هذه الامثال العامية المتداولة حاليا بيننا بقيت جامدة ثابتة هكذا على حالتها التى رددها الاجداد الاقدمون فى غابر ازمانهم ٠

ذلك ان التفكير الحكمى يعد من قبل الظواهر الاجتماعية ذات الطبيعـة المتغيرة دواما واستمرارا ـ فكما انها تغيرت قليلا او كثيرا عما كانت عليه بالامس البعيد ، فلسوف يعروها فى انحدارها الى الاجيال القادمة نوع من التغير لا محالة ـ وانها لرسالة هامة نحو التاريخ الثقافى لهذه البلاد ان نسارع بتدوين الآداب الشعبية بمـا فى ذلـك الرصيد الحكمى الشعبى صاحب التأثير والوقع البالغ فى حياة الناس وتعاملهم مع بعضهم بعضا ـ ولعله ليس من المبالغة فى شىء ان نحن قلنا بأهمية التسجيل الكتابى او الصوتى لهذا التراث الادبى وحسبناه من اجل الخدمات التى يقدمها الاديب لبلاده ـ اذ بهذا الضبط والتسجيل نتمكن فى يسر من دراسة التغير الذى طرأ ويطرأ على المأثور الحكمى فى بحر فترة معينة من حياة المجتمع ـ ثم نحن باعتمادنا على ذلك التسجيل نستطيع اجراء مقارنات بين فترة واخرى وبين جيل وآخر فى الاتجاه التربوى مثلا ٠٠٠ وانه لمؤسف حقا ان اندثرت آثار ادبية شعبية ضخمة وقيمة لم يكن لها من سجل سوى حافظات المولعين وذاكرة هواة هـذا الفن الذين كانت الخسارة بمـوتهم رزئين ـ فلقـد ضاعت مروياتهم السماعية بتوارى اشباحهم ، وهذا جاء نتيجة لعدم اعطائنا هذا الجانب الثقافى اهمية تذكر ، فكانت حسرتنا ازاء ما اندثر من تلك الاثار الحكمية وغيرها كحسرتنا على ما فاتنا تسجيله من اغانى الفنانة التونسية المرحومة «**صليحة**» ، وغيرها من الفنانين والفنانات الاقدمين ـ هذا مع الاعتراف بان الامثال والحكم الشعبية توجد وتحيا ثم تموت تلقائيا ، ومـن هنا كان ويكون زوالها امرا حتميا يسببه التطور الطبيعى للغة التخاطب ـ فلقد تزول بعض من الامثال وتندثر لولا مرويات بعض الشيوخ الطاعنين فى السن ، وذلك اما لابتعادها فى شكلها اللغوى عن لغة ولهجة المجتمع الحالى ، بحيث يكون هذا اللون من الامثال قد ادبر مع ادبار لغته ولهجته القديمة ، او انهـا تموت فتأخـذ طريقها الى الاضمحلال لافلاسها فى المحتوى المعنوى ناهيك باستسخاف الناس لها واقلاعهم عن استعمالها والتمثل بها بالتالى ـ

ثم هذا الضبط الكتابى نريده لا للمثل العامى فى نصه ومبناه اللفظى فقط ، بل نريده ايضا لكل ما يتصل به من ظروف منشئه التاريخى الى معانيه وملابسات استعماله ـ ففى كثير من الاحيان يردد المواطن امثالا عامية هو نفسه لا يفهمها على وجهها ، او انه يستعملها فى غير ما تصدق عليه من مواقف ، ذلك لانه اخذها على النحو الذى اجتهد اليه دونما مراعاة لدلالتها الاصلية ، ولانه استروح من مبناها الشكلى اللفظى او من ظروف استعمال الناس لها ، حقيقتها ، وما حسب ان معناها الحقيقى قد يكمن فى قصة تاريخية شعبية ، او فى حدث من الاحداث الماضية ، او حتى فى خبرات محددة عاش عليها السلف الحكيم ـ وعلى هذا النحو تكون الامثال العامية مفتقرة باستمرار الى مراجع وقواميس جامعة ومفسرة ، اذ كثيرا ما تبدت لنا على نحو رمزى غامض ، يعسر فهمه ان لم يوضحه لنا احد المتفقهين فى المنطق التقليدى ـ ثم كثيرا ما جاءت الامثال تتويجا لاسطورة او خلاصة لقصة او مواقع شهيرة ولزاما علينا ـ والحالة هذه ـ ان نرى فى الضبط والتسجيل لكل ما يحف بالمثل من ظروف وملابسات ، ضمانا لعدم المسخ والتحريف ، وضمانا للفهم الجيد والاستعمال الصائب ، وفى ذلك كله وفاء للتاريخ الادبى الشعبى ـ

الامثال فى تغير مستمر

انه لما نؤمن به ان قاموس الامثال العامية هو كالرصيد النقدى يتناقص ويتزايد ، يتحور ويتغير وليس هو على كم وكيف قارين ثابتين ـ وبناء على هذا يكون من اوكد واجبات الادب ان يدرس هذا التغير فى عوامله ونتائجه ، لنزداد معرفة بالفوارق التى تفصلنا وتميزنا عن القدامى ـ ولعل مثل هذا الصنيع يكون فيه التأثير على المنطق الحكمى التقليدى مثلما كان منا التأثر به ، هكذا جريا على قانون الاخذ والعطاء ، وعلى سنة الاستفادة والافادة ـ ولكن هذا الارب الدراسى التحليلى لا يكون الا نتيجة للتسجيل والتدوين الامينين ، وبدون هذا لا تتأتى الدراسات الجدية النافذة ـ

فمثلا هناك حكم شعبية مستحدثة ستكون اثرا ادبيا تستشهد به وتتمثل به اجيال مقبلة لعدة عصور ، والمظنون انها ستحرف عن معناها الاصلى ، او انها ستؤخذ على غير الوضوح الذى هى عليه عند ما نستعملها فى لغة الحوار والتخاطب الحالية ـ من هذا القبيل قول التونسى المعاصر « **اشك للعروى** » فمثل هذا المثل الدارج او الذى اخذ طريقه للرواج انما

هو مرتبط بشخصية ادبية معينة ، كلنا على علم بها وبدورها الخطير في الحياة التونسية منذ ما لا يقل عن ربع قرن ويزيد ـ فهذه المعرفة العهدية بشخصية عبد العزيز العروي المذيع ، وبدوره الاذاعي من انه يجيب عن اسئله المهمومين المكدودين ، ليعطي مدلولا واضحا لقول القائل : « **اشك للعروي** » ولكن هذا المثل ان لم تدون جميع ظروفه ، سيكون مثاله الغموض الكلي او النسبي ، ولعله يصبح على غموض الاثر الشعبي القائل « **لا من را عيشة في سوق الغزل** » (1) وعلى غموض قول القائل « **بره يا علي بعشاك** » وانك لتتساءل ـ عند الامعان ـ في هذين المثلين من هو علي ؟ ومن هي عيشة ؟ ثم تردف بالاستفسار عن قصتيهما في شيء من الحيرة التي ولدها غموضهما في نفسك ـ كل هذا يحتم علينا القول بضرورتي التدوين والتحليل ـ واذا لم تبد لنا اية فائدة في هذا العمل المزدوج ، فلسوف يجني ثماره ـ لا محالة ـ ذلك الجيل الصاعد ، بان يحيا على وضوح من آثار اجداده على الاقل ٠

ولما كنا حددنا موقفنا ـ وما يجب ان يكون عليه ـ ازاء هذا الرصيد الهائل من آثار التفكير الحكمي الشعبي ، بان اوجبنا على انفسنا الجمع والتدوين حتى يتيسر لنا ولاحفادنا الدرس والبحث في طبيعة عقليتنا ومعتقداتنا ـ قلت لما حددنا لانفسنا تلك المسؤوليات فلسوف نشفعها باخرى تتصل بالاثار الحكمية التي هي في طريقها الى الاضمحلال ٠ وخدمة للتاريخ الادبي الشعبي ، نقول باهمية التدوين ، فمثلا هناك زمرة من النماذج الحكمية التي رددتها السنة اسلافنا ما كان ليتوقع لها البقاء لا في لغة الجيل الحاضر ، ومن باب اولى في لغة الاجيال الزاحفة ـ فمن هذا الرهط ما حيك حيال « **البايات** » باعتبارهم رموزا للسلطة السياسية في العهد الغابر ، فقبيل قيام النظام الجمهوري يقول التونسي عند دفع ظلامته : « **اخي بوك باي** » هكذا في لغة ولهجة الاحتجاج ـ وانه لمن سياق هذه الجملة ـ التي كتب لها الرواج الى حين ـ يبدو كما لو كان الظلم في القديم مقبولا ومشروعا ان هو تأتى عن افراد الاسرة المالكة ، اما ان يتأتى الظلم من اى مواطن عادي فهذا ما لا يتقبل ٠ وفي قولهم : « **هم الباي رده في الرعية** » (2) ـ ما ينم كذلك عن مألوفيه الظلم للرعايا حتى انه ليجوز لنا القول بان سياسة الملوك المتبعة ليست هي سياسة حق وعدالة ، بل هي سياسة اعتاد الناس ظلمها حتى انهم اصبحوا لا ينكرون الظلم اذا هو جاء على ايدى اصحاب السيادة الحاكمة في البلاد سابقا ٠

(1) في رواية : « لا من را عيشة في سوق الخميس »

(2) في رواية : « غش الباي رده في الرعية »

وانك لتعجب معي ان انت علمت بان معظم الامثـال التي تعمر ذهـن المواطن لا يواكبها الفهم الصحيح والتام ، وان معظم الناس يرددون الامثال على نحو ما سمعوها عليه ، دونما امعان في محتواها ومدلولها ، ودونما تفكير في منشئها وظروف انطباقها التي يصح الاستشهاد او الاعتبار بها فيها - ثم الكثرة الكثيرة من الناس يضربون الامثال بطريقة آلية وان كانوا على نوع من الاستبصار بمحتواهـا وبما تشير اليـه • ولعل هـذا التأثر - الشبيـه بالالى - بمنطق الجدود مرجعه تنشئتنا الاولى عليه ، وعلى ناموسه بما جعله افضل من غيره او يبدو لنـا كذلك • ولعـل استعمالنا الامثال العامية في لغة الحوار والجدل ، في سياق المجاملة او الفكاهة ، من غير ان نكون على فهم عميق او تـدبر حصيف بمـدلولها مرجعـه هو الآخر عدم توفر التساجيل الكتابيـة التـاريخية التي يمكن الاطمئنـان اليها في شيء من الوثـوق والارتياح - وانك لتجـد التونسي المعـاصر يردد مثلا تونسيا قيروانيا في غير مـا نظر شامل او تبصر دقيق ، كأن يقـول : « **القاضي عظومي والمفتي عظومي ، لشكون نشكي يا شومي** » في مواقف التبرم من تـألب المتحزبين عليه - وانه لمثل يرتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ القضاء الشرعي بحيث لا يظن استواء الناس جميعا في فهم حقيقته التاريخية - كما لا يفهم هذا المثل على وجهه الحقيقي التاريخي الا ممن كانوا على المام بتاريخ حقبة تاريخية معينة من ماضي اقدم عاصمة عربية اسلامية بهذا الشمال الافريقي - وهو كما هو بين يعطينا فكرة ما ، عن اسس تخير القضاة ، او عن مدى نجاح الاسر العلمية في توريث المعرفة الدينية للاعقاب - اذ ما من شك في ان اجتماع مناصب الفتياء والقضاء ، عند وسط عائلي واحد ، يعلل باحد امرين : اما ان الكفاءات الشرعية كالملوكية تورث للاحفاد بعد الموت ، وتوزع على الانساب والاقارب تحزبا وتعصبا ، او ان الاوساط العائليـة العلميـة تنشيء ناشئتهـا على قيم سامية ، بحيث تعدهم الاعداد الذي لا يزاحمهم فيه احد • وكانت النتيجة الحتمية بان صار الابن نسخة من ابيه في مستوى العلم والفضل ، وبهـذا آلت التولية ، لمنصب الحكم الشرعي لا تخرج عن بيت آل « **عظوم** » - ولعل المثل على اعتبار آخر ، يشير الى جور هذه العائلة في تاريخ القضاء الشرعي التونسي ، بما جعل قائله يطلقها صرخة داوية ، بها من الضجر والشكوى ما ينم عن تعصبها ، وتحزب افرادها بعضهم لبعض في قضايا الحكم ومشاكل الفتياء ، بحيث انمن ارتطم باحدهم ما كانت له رحمة عند غيره ممنهو على قرابة دموية به - وانها لتتاويل متعددة يحوم حولها الظن والتخمين ، ولولا امكانية التراجع الى بعض المصادر التاريخية لما امكن الانتهـاء الى ترجيـح احـدى

المخريجات القريبة الى الواقع فى حمل هذا المثل العامى ـ وكنا نعفى من هذه البلبلة تماما ، لو كان لنا تسجيل يوضح ظروف اطلاق مثل ذلك الاثر الذى يفتقر الى سند يوضحه ويبين المقصود منه ، لانبنائه على وقائع واحداث تاريخية ـ ولمثل هذا الهدف ندعو للاسراع نحو التسجيل والضبط الكتابى لكل ما هو ذائع من اثار التفكير الحكمى بهذه الاوساط التونسية ـ وكذا الامر بالنسبة للحكمة المأثورة : « **معيز ولو طاروا** » فهو لا يفهم كسابقه الا فى ضوء سرد واقعة تاريخية ، فقد قيل ان خلافا حصل بين اثنين فيما عسى ان تكون حقيقة بعض الاشباح التى تبدو لهما على امتداد البصر ؟ فاما احدهما فقد ذهب الى انها سرب من العقبان واما الآخر فلقد ادعى بانها قطيع من العنز ٠ وعند ما احتدم الخلاف ، عزما على التاكد من موضوع الاشباح بالاقتراب منها ـ وبالفعل عند الدنو منها تبين انها عقبان اذ ما كادت تتحس قدوم الاجنبى حتى اقلعت طائرة فى جواء السماء ـ وهنا لما بان الصبح لذى عينين التفت صاحب الحدس الصائب قائلا لصاحبه المعارض : اتاكدت بعينك ؟ الم اقل لك انها عقبان ؟ ! كلا اجابه صاحبه فى شيء من التعنت : « **معيز ولو طاروا** » ـ فجاءت اجابته فيها من الاصرار على الرأى الاول ولو بدا ما يعارضه بالبرهان العيانى ٠

وبالجملة فان الامثال التى هى من هذا النوع كثيرة وكثيرة جدا ، ومتى لم ترو مردوفة باساطيرها وقصص منشئها ما كان لنا فيها اعتبار ولفقدت دلالتها الاصلية ، ولاصبحت آخر الامر كالعملة التى الغى رصيدها الذهبى ليس لها اية قيمة تذكر ـ ومن هنا يتحتم حينئذ التدوين والجمع ، على انه من البداهة ان مثل هذا الضبط للامثال فى نصوصها وملابساتها ليس بمتيسر على الفرد مهما كانت جهوده وامكانياته ـ ذلك لان مصادر هذه الامثال هى منتشرة هنا وهناك بكامل التراب الجمهورى التونسى ـ واذا ما حاول جامع الامثال الاتصال بالكتب والمراسلات ، وبالاستفسارات الصحفية والاتصالات المباشرة فهذا لا يؤدى حتما ، الا لنتيجة بتراء او ناقصة ومتنقصة ـ فمثلا ليس كل من له رأى فى مثل عامى يقرأه فى صحيفة سيارة يبديه لناشره بالكتابة له او للصحيفة ، ثم لا لزوم فى ان يكون تفسير المثل المنشور عند قارئيه ، فلقد تكون دلالته بمنأى عن المتعلمين ، وانما هى عند الاميين الذين لا يقرأون الصحف ، ولعل هذا هو الشائع ـ هذا كله الى اختلاف الامثال فى نص الرواية حسب الجهات ، فلقد وقفت على مثل عامى روى

لى بسنة اشكال لفظية يتبع كل واحدة منها جهة خاصة من بلادنا ـ كما وقفت على بعض الامثال ذات المفاهيم المتعددة ، واحيانا نجدها مروية بطريقتين متناقضتين فى المعنى ـ فمن هذا القبيل مثلا قول التونسى : « **الاصل يغلب الربابة** » وقوله تارة اخرى « **الربابة تغلب الاصل** » كل هذه الامور الشائكة وما اليها توجب اخذ الحيطة فى مهمة الجمع والتدوين ـ وانـه لمن الاجـدى فى هذا العمل ان يتعاون جمع من ذوى الولوع والكفاءة على هذه الغاية التى لا تتحدد لدينا بالجمع والتدوين فقط ، لان الجمع كيفما اتفق لا يجدى الجدوى المرجاة ـ ولا بد لكى يؤدى التدوين مهمته ان تراعى فيه شروط منهجيـة تنظيمة ، كفيلة باعطائنا نتائج ذات وزن علمى او رواء فنى ، ولئن تساءلت على التحديد عن هذه الشروط قلت لك : اصحاب الكفاءة من ذوى الخبرة ادرى الناس بها من سواهم ٠ مع الاشارة الى ان ما يستوجب الحديث عنه كتبا لن يقوى المرء على ايجازه فى كلمة ٠٠٠٠



« العِينْ اللِّي بَكَاتْ لاَزِمْ تَضْحَكْ »

الأسـرة التونسيّة

عندما نتحدث عن الموقف التربوي فليس من الواقع في شيء أن نحد ذلك الموقف بحدود المدارس والمدرسين، اذ المواقف التربوية لا يحياها الطفل بالمعاهد التعليمية فقط بل هو يألفها في عقر بيته وبين أرجاء المدرسة الاولى أو المنزل. ولقد جرت العادة أن تنسب التربية للمدارس وأن ينسب المواطن في تربيته الصالحة أو الطالحة إلى المعهد الذي تعلم به، ولكن في مثل هذه الاهمية المعطاة للمدرسة النظامية مبالغة تستوجب الإستثناء والتعديل ذلك أن الطفل قبل مثوله إلى رحاب المدرسة كان قد تأثر إلى أبعد الحدود بأسرته، وكان قد تشرب عنها معايير كثيرة، ولعل ملامح شخصيته ذاتها قد تحددت في خطوطها الاولى، وبهذا المعنى يكون أثر الاباء والإخوة في تربية الطفل أبلغ وأقوى مما سيلحقه من آثار التربية المدرسية. هذا الى أن تأثير البيت اذا هو كان الاسبق والاشد نفوذا على حياة الطفل وتكوينه، فان هذا التأثير سوف يستمر يزاحم العمل التربوي النظامي، يمشي معه قدما بقدم، ولربما واكب حياة الفرد من المهد إلى اللحد. وهكذا بالإستناد إلى كل ماتقدم – فانه لا يصح بحال من الاحوال أن نلقي تبعات الاعداد والتنشئة على كاهل المعلم، وعلى كاهل المعلم وحده، أو أن نرى مسؤولية الإخفاق أو النجاح في تربية الطفل ملقاة على المدرسة والمدرسين، فالطفل قاسم مشترك بين أهله بالبيت، وأهله بالمدرسة، وإنه لمعقول جدا، أن نرى مسؤوليات تربيته لا حقة بأوليائه هنا وهناك. فالاباء الروحيون كالاباء المعيلين، والاجواء العائلية كالاجواء التعليمية في التأثير على الطفل، ومن هنا جاء القول بضرورة قيام تعاون مثمر بين كل من اولياء الاسرة وأولياء المدرسة – ففي ظل هذا التعاون تتآزر الجهود بدلا من تلاعنها وتعارضها، وفي ذلك غنم لا يتوصل اليه بدونه. وبما أن المعلم حسب الظروف والعادة، أوفر حظا من الوالدين في الإطلاع على أسرار التربية وشؤونها، فانه بالنظر إلى هذا تصبح مسؤولية

الربط والتعاون بين الاسرتين ملقاة على روح المبادءة في المعلم ـ وطبيعي أن يتسع أفق العمل لدى المعلم إذا نحن زدنا الى تبعاته الجسام هذه المهمة ألاوهي السعي للتأثير على تلميذه بطريقة غير مباشرة أي بواسطة والده وذويه. ويصير بالتالي نظر المعلمين غير محدود بأسوار أبنية المدارس، بل هو يمتد إلى آفاق البيوت ،ومواقف قطانها من أبناء وآباء، وفي هذا ازدواج المهمة التربويةالتي ننتظرها منهم : جانب منها يتجه إلى الحياة المدرسية ، وجانب آخر يلحق الموقف العائلي يسوسه بالتوجيه المناسب، ويوعز له بالايحاءات المجدية في حياة الطفل العاجلة و الآجلة ـ هذا الى سعيه الحثيث في أن تزداد معرفته بالطفل من خلال تعرفه على حياته وسلوكه داخل بيته، يحاول المعلم الإهتمام بحال الاسرة التونسية نظرا لما هي عليه من أهمية الوقع في حياة تلميذه. وان أنت تطلعت إلى حدود هذا الإهتمام في نوعيته ومداه فليس لك أن تستفسر عما لا يحد ولا يقدر ـ فالاطفال كثيرا ما يتقمصون اشخاص معلميهم في بيوتهم إعجابا بهم و بمواقفهم ، فكيف لا يقابل تعلقهم ذلك بتفكيرنا نحن في شؤونهم وفيما يعود عليهم بالنفع داخل أسرهم ؟!
وإنه لواقع عياني أن أطفال المدارس لا ينقطعون كلية عن أجواء المدرسة هكذا بطريقة فجائية عندما يعلن الجرس وقت انتهاء الدروس، وحلول فرصة الانصراف إلى المنازل.
فهم بالطريق العام يرددون بالنشيد بعض ما كانوا ينشدونه بالفصول، واحيانا بعضا مما كان يقوله السيد المعلم، ولعلهم يكتبون على الجدران والابواب التي تصادفهم بالطريق جملة كتبهم إياها معلمهم منذ لحظة. ثم هم كثيرا ما يقصون على امهاتهم تلقائيا أو بايعازهن بعضا مما فعلوا وقرأوا، وحتى في العابهم الحرة فلقد يجدون المتعة في إدكار ومراجعة مواقف المعلمين بازائهم.
فكل هذه البوادر تنم عن متانة الربط والعلاقة الجامعة بين المعلم وأبنائه، ولربما كان هذا الإحكام في الصلة الروحية مظهرا من مظاهر اتقان المعلم مهنته أو علامة من علامات نجاحه فيها، لكن هذا كله لا يعفي المعلمين من واجبهم في أن يتابعوا أطفالهم بعناية تتجاوز اعداد الدروس وتصحيح المواضيع إلى محاولة صادقة ودائبة يستهدف بها إحكام الربط والعلاقة الواصلة

بينه وبين أولياء أبنائه الروحيين. وإنه لو توصل إلى غايته هذه لامكنه معالجة المشكل من أساسه وبطريقة وأسلوب ناجع — فنحن نعلم مقدرات أسرنا — عموما — سواء في المعتقدات أو في العادات والتقاليد، ونعلم علم اليقين كيف أن من هذه وتلك ما يقف حجر عثرة في سبيل اصلاح الطفل وتوجيهه . فاذا تمت لنا علاقة طيبة وموجبة بآباء الاطفال أمكننا بواسطتها التأثير على الطفل بالنحو الذي نريده، وذلك بحمل ولي الطفل على معاملته بعقيدة واسلوب ناضجين . وفي هذا فرصة إصابة الهدف التربوي وبلوغ غايتنا المثلى من عملنا معه — ولعلك تذهب إلى تعذر هذا السعي على المعلمين لاستنفاد المدارس أوقاتهم كلها ومتى بقيت لهم حصص وجيزة فلعلها لا تكفي ولا تفي بحاجاتهم الضرورية. زد إلى هذا وفرة عدد الطلبة بما لا يمكن من بلوغ الارب الذي اشرت — قلت : أجل لئن كان في هذا الإعتذار حق ووجاهة فان الميل إلى أي شيء والاندفاع له كفيل وحده لايجاد امكانيات بلوغه، فالمعلم الذي يحب عمله ويريده على الصورة المثالية سوف لا يأل جهدا في القيام بالمحاولات تلوى الاخرى للاضطلاع بمسؤولياته على النحو الذي يرضي ضميره— على أن القضية ليست هي من الصعوبة التي تستوجب الإنصراف الكلي أو المجهودات الجبارة، بل يكفي فقط التعرف على أولياء التلاميذ ليكون لك بهم اتصال قد تستثمره فيما بعد للتوجيه والايعاز عندما تحين الفرصة، وما أكثر فرص التلاقي والاجتماع، سيما في المجتمعات القروية الريفية— هذا الى ان المدن الكبيرة كثيرا ما تعين مدارسها أوقاتا محدودة ودورية للاتصال بأولياء التلاميذ. ففي هذه الجلسات تتم عمليات الاخذ والعطاء في المعلومات الخاصة بحياة التلميذ وبشتى نواحي نموه، العقلي منها والخلقي — وبمثل هذا الصنيع يتم لانضج المربين الذين يؤثرون في حياة أطفالنا أربه من أن يوحد جهوده مع جهود الآباء في البيئة العائلية، وتتهيأ له بالتالي إمكانية التأثير الاسرع والاقوم، وفي ذلك تحريك السواكن بحق... هذا وللمعلمين أن يوجدوا منتديات لهم ، ولا ولياء الاطفال يحاضرون فيها وينشرون بها مبادىء التربية الحديثة . ففي هذا الصنيع امكانية التأثير الابلغ في حياة الاسرة التونسية وفي حياة طلائع الجيل القادم . واذا

روعي في التحدث إلى أولياء الاسر من آباء وأمهات حالهم الثقافية بحيث يساق لهم التوجيه في شيء من الوضوح الجلي وفي أسلوب يماشي مستواهم العقلي واللغوي فان في هذا وبهذا تحريك السواكن ايضا ...

في بناء ووظيفة الاسرة

يقول جان جاك روسو أحد أعلام المدرسة الطبيعية في تاريخ التربية :
"من لم يستطع القيام بواجبات الابوة ليس له الحق في أن يصبح أبا"
وهو في اتخاذه لهذا الموقف انما يعبر عن مشاعر الإثم وحزازات الاسى التي عرته كأب متندم على إهماله تربية أولاده وتقصيره في أداء واجباته الإنسانية إزاء من تسبب في إيجادهم عن اختيار وروية وما كان ليتعنى لإسعادهم بالرعاية الحادبة. فهو كما لو أراد تمييز دور الإنسان ازاء العمران البشري بان جعله غير مقصور على انجاب الاطفال ليخلفونه من بعد موته. بل اراده يتجاوز هذه الوظيفة إلى مهمة الرعاية المربية لمن كان سببا في انجابهم من كائنات ضعيفة يتطلب نموها السهر المعتني والإعتناء الساهر. ونظرا لسمو الإنسان وسمو قيمته التي بها يحيا ويتعامل. أراد جان جاك روسو الا يكون موقفه كموقف السلحفاة عند وضعها بيضها وراء ظهرها دونما التفاة أو اهتمام بمصيرها. بل انه يريد بالإنسان القيام بواجبه الخطير إزاء أطفاله ولا يكون على حال السلحفاة وعند قول المثل الشعبي المتكلم باسمها :
"فكرتْ ولاَ لاَ فكرتْ"

وجريا على هذا المنطق، وأخذا بهذا الضمير الذي يحاول روسو إحياءه في الآباء الحقيقيين والمنتظرين، تعزف المرأة الناضجة التكوين بالمجتمعات المتمدينة عن الحمل والإنجاب إما بتناولها موانعه ومعيقاته أوحتى بعدم التزوج ابتداء، لعلمها بالعجز أو الضعف الذي منيت به. وليقظة ضميرها من حيث أنه يتأبى الإيباء كله عن انجاب أطفال قد لا ينتظر لهم في حدسها أو يقينها إلا الجوع والمرض، العراء والتشرد. وكثيرا ما يفشل الزواج بالمجتمعات المتطورة كفشله الشائع بالمجتمعات المتخلفة فتكون الزوجة والحالة هذه من الحيطة بحيث تتوقى الإنجاب بمختلف الوسائل،

ولعلها تقدم على الإجهاض إنهي تورطت. كل ذلك لانها رأت في زوجها تدهور الاخلاق أو تخلف الإمكانيات لإسعاد أبنائها المنتظرين - وانك لو تمليت رأي هذه المرأة في وضوح. وسألتها عن دواعي حرمانها نفسها من متعة الإنجاب والامومة أجابتك قائلة: " انني تسببت في شقاء نفسي اراديا وعن اختيار شخصي حر. إذ توسمت الخير في من داعب وداعبته أحلامي. وكفاني هذا الشقاء المر في الخيبة التي أحسست بها الآن... ولماذا يراد مني وكيف أعزم على تضعيف شقائي هذا وأزيد في عنائي.؟. فأنا لا أريد أن يشقى بي أبنائي باعتباري مسؤولة عن تخير والدهم ومعيلهم الكفء... ولما وجدتني خاطئة في التقدير فاشلة في المسعى تجرعت في ذلك كل النتائج الوخيمة مع كل الصبر والتضحية... أما أن أريد لعقبي أن يجني هو الآخر نتائج خطا لم تكن له فيه يد فهذا ما لا يتقبله ضميري".

ولقد يشبه موقف هذه الزوجة الفاشلة موقف الشاب الذي اهلته بيئته النيرة لفهم طبيعة الحياة على وجهها الاكمل - فهو قد يمسك عن الزواج ابتداء لانه لم ير في نفسه المقدرة ولا الاهلية الكاملة للقيام باعباء الابوة. وللمرء أن يؤاخذ هذا النفر من الناس في حيطتهم من المستقبل وفي وسواسهم المتوجس خيفة مما سيصير وسيحدث، مدعيا أن مثال الإنسان العوبة في يد الاقدار وليس بامكانه أن يتصور وأن يقدر في شيء من اليقين هذا المستقبل الذي ينتظره، وبالتالي أي فائدة وأي معقولية في هذا التردد على عتبة الزوجية وعلى انجاب الخلف؟! وإنه من الاوفق أن يمضي الإنسان في مسايرة الظروف يتزوج ما واتاه الزواج، ينجب الاطفال ما أمكنه ذلك وليكن عند ظن حسن اذ لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا.

أجل من الناس من هو على هذا الإتجاه المبدئي بحيث ان هو واتته الفرصة لبناء أسرته أقبل في إسراع مندفع. ولعل اندفاعه يقوى كاشد ما تكون القوة ان بسطت له الحياة يدها رخاء في ظل محبة صادقة الإحساس خالصة المقصد، عندها يتقدم مسرعا ليقيم الهيكل الاسرى متأثرا مثلا بملحظ حكمي تونسي. يشير الى ما ينبغي مراعاته قبل غيره في شريكة الحياة. كأن يهزه قول القائل "إِللِّي يَاخُذْ فِي النِّسَاء خَنْتُورَة يِعَدِّي عُمرُه كُل يُومْ عَرَاس، واللِّي يَاخذ فِي النِّسَاء جَادُورَة يِندب ويعَاوْنُوه النَّاس". ولقد

يظنها "خَنـْتُورَة" فيجدها "جَادُورَة" اوانه يجدهابالفعل "خَنـْتُورَة" الأن أيامه معها لم تكن كلهاعلى ما قال المثل أيام سعادة وفرح. ذلك لانه لم يكن يقظا في نظرته لقضية الزواج. نظر اليها على أنها مشكلة شخصية فردية وحسب. والواقع أنها ذات جوانب انسانية اجتماعية. وحسبها قضاء وقدرا وهي إن كانت كذلك. عدت ايضاذات تبعات ونتائج لامرء بازائها مسؤولية إعمال العقل والتدبر - والحصيف الحصيف من لم يكن مغترا بالمقدمات بل قارئا للامور حسابها وحساب نتائجها. والحصيف الحصيف من كان حقا محكرا للاشياء والاشخاص وحتى الاحداث من جميع الوجوه. فلاينسى مثلا في تخير الزوجة التنظير بينه وبينها في جميع الجوانب الشخصية : في المزاج والعقل. في الوسط الإجتماعي والإقتصادي. في المحتد والإخلاق. في الذوق والسن. ي الثقافة والميول. فهو ان فعل هذا ربما صرف نعمة الله عليه وجعل نفسه على بينة. وعلى هدى من أمره عند اقباله على الخطوبة أو الزواج من امرأة سوف تشاركه الحياةوسوف يحاول معها التعاون على خوض غمارها والسير في شعابها وبطاحها. بين فجاجها ومن فوق قممها - ولهذا يتأكد هذا التنظير وتتحتم تلك المقارنة وطبيعي ألاتؤدي هذه المقارنة نتيجتها المرجوة الا على ضوء معرفة كل من الخطيب والخطيبة لمختلف حدوده وحدود صاحبه الشخصية. وبهذا المعنى لا يكفي أن نقبل على خطوبة إمرأة لانها "خَنـْتُورَة" وجميلة جدا. فهذا مالا ينبغي الوقوع فيه إذ المرأة وكل شيء لايحكر من زاوية واحدة ولهذا الملحظ يشير المثل الشعبي القائل : "لاَ يـَعْجـِبـَكْ نـَوَّار دفْلَة فِي الوَادْ عَامِلْ ضِلاَيـِلْ. وَلاَ يـَعْجـِبـَكْ زِينْ طُفْلَةْ حَتَّى تْشُوفْ الفْعَايـِلْ" ففي مثل هذه التوصية التي جرت مجرى الامثال ما ينم عن أن التجربة قضت والاحداث أكدت ضرورة الدرس الشامل لمختلف جوانب شخصية المرأة. فلا اندفاع وراء المظهر على أنه أهم جانب. في ذاتها وإلا يصبح الشاب مضللا بالحياة عن فهم الحياة نفسها. أي منجرفا وراء الرغبة العاجلة. وفي هذا ما يجعله عرضةللدمار أو الشقاء - ولسوف يعلم بعد فوات الاوان أن الحياة لا ترحم عديم الخبرة إن هي لم تسحقه سحقا. وأن الجاهل بنواميسها اسلس انقيادا لشرائكها ممن جرب وتسلح بمضاء العقل. فالى هؤلاء أصحاب المنطق السليم والتقدير

التحكيم تنصاع المنى المتبعة وكثيرا ما تتسارع الغايات البعيدة. أما أصحاب الإرتجال والعشوائية. ومثلهم أسارى التقاليد الباهتة في تخير شريكة الحياة. وعلى غرارهم الاتكاليون المتواكلون ممن يعطلون العقل على اداء رسالته نحو صاحبه. في ادعاء التدين والورع الديني. فهؤلاء جميعا عرضة لسوء المصير ولخيبة المسعى — ذلك لأن الله جعل لكل شيء سببا وأمرنا تعالى بالسعي والتدبير. وما جعلنا على عقول عاقلة الا لنستفيد ونهتدي بها. لا أن نتذرع بالعلل الماورائية ونبقى مكتوفي الايدي أو على سعي وإقدام يوجهنا فيه روح التفاءل. أو الإعتماد الكلي على البركة والقوى العليا دون أن نأخذ بعمليات العقول والعلوم التي هي آية الله في تكويننا الآدمـــي —

المصاهرة بين العصبية والتحرر

يجنح وسطنا العائلي على العموم إلى تزويج أبناء وبنات العمومة بعضهم ببعض. وانها لنزعة أصيلة يعم الاخذ بها في أوساطنا الريفية أكثر من غيرها — وإننا لو حاولنا تعليل هذه الظاهرة وجدنا لها مفسرات ومبررات عدة. من بينها الرغبة في عدم إدخال الوراث الغريب حفاظا على الرزق والملكية الخاصة بالعائلة — كما قد يكون وراء هذا الإتجاه روح العصبية للعائلة والقبيلة بحيث تكون ابنة العم أفضل من غيرها وأجدر بالخطوبة والإتباع من سواها. وفي الاثر الشعبي: "الثَّنِيَّةْ وَلَوْ دَارَتْ وَبِنْتِ العَمْ وَلَوْ بَارَتْ". ولقد يكون الحافز للزواج من بنات العمومة ومن اليهن من قريبات. هو الإعتقاد بقربها في مزاجها ومميزاتها مما يوده الزوج. وفي ذلك ما يبقي على دوام الربط العائلي والسعادة العائلية بالتالي ـ كما قد يكون سبب هذه الظاهرة هو الظن الراجح من أن ابنة العم تتقبل ابن عمها على أية حال يتصير إليها. وإنها لتتحمل منه ما لا تتحمله المرأة البعيدة. وفي هذا المعنى يقول المثل الشعبي: « بِنْت عَمَّكْ: تِتْحَمَّلْ هَمَّكْ".

هذا ومهما كان التعليل الاصدق من غيره في هذه القضية. فالذي يهمنا بالدرجة الاولى هو الإشارة إلى أن السعادة الزوجية والتوفيق قد يحالفان المتزوجين من بنات العمومة مثلما قد يصادفه المرء مع الغريبات. كما أن

الشقاء — وكثيرا ما يكون — مع الزوجات القريبات ايضا. الامر الذي أملى على البدائي قوله : " ابْعِدْ عَــلى الدّم لاَ يِشَوّهِكْ".

ففي هذا المنطق تشاؤم واضح ازاء الروابط الدموية. تشائم في كل شيء : في المصاهرة والمعاشرة. وحتى في التجاور والتزاور — فهو يوصينا بالإبتعاد. ولك أن ترى هذا الإبتعاد من القريب في النفرة منه بتاتا — وطبيعي أن يكون في هذا التحذير نوع من الغلو في النظرة المتحررة من العصبية العائلية يقابلها مــن طرف آخر غلو في التعصب لاواصر الدم تمثله الحكمة التونسية : "قُطْرَةْ دَمْ خِيرْ مِنْ أَلْفْ صَاحِبْ". وإذا نحن رأينا انبناء هذين الرأيين على وقائع وتجارب متباينة النتائج فهما ليسا من الوجاهة ولا السداد في نظر العقول المتأملة في واقع الناس — ذلك لان علاقات الدم ليست هي مظنة للزوابع والشرور بقدر ما هي عرضة للالفة الوطيدة المكينة. كما أن الالفة والعشرة الطيبة لا تتوقف على وجود رابطة دموية إذ كثيرا ما تكون مثالية بين الاباعد والغرباء.وفي هذا المعنى يقول الاثر الشعبي "خُوكْ مِنْ وَاتَاكْ مُوشْ مِنْ أُمَّكْ وبَابَاكْ". وفي هذا إشارة إلى وجوب اعتبار التوافق الوجداني والصلات الروحية قبل سواها في تفضيل الزوجة والعشير.

الشعور بالمسؤولية العائلية :

تتعدد محكات اختيار الزوجة والزوج. ومن المعقول أن تتعدد وأن تختلف باختلاف الامزجة والنظرة الفردية والإجتماعية — إلا أن هذه المحكات والمعايير قد تكون ناضجة، في ظل الإهتداء بها التوفيق في الحياة الزوجية، كما قد تكون بدائية، أو جزئية الملحظ ،أو نسبية الإعتبار. بحيث تفضي بصاحبها إلى ما لا تحمد عقباه وما لا يرضاه — ونحن ننشد من وراء ما قدمناه نضج معايير الاختيار في أن تكون شاملة التقدير مراعية الامور الجوهرية والعرضية، مميزة بين الحاجي والكمالي، بين الاهم والمهم، بين الباقي والزائل ، بين الجد والهزل، بين ما هو شخصي وما هو غيري، بين الحقوق والواجبات الى آخر الإعتبارات التي يجمل بالمرء أن يقرأ لها حسابها عند إزماعه على بناء الاسرة وعند تخيره لام أطفاله.

فمن الشباب من لا يرى في الزواج إلا المتع والإستقلال وزوال التبعية. ولا يقدر التبعات والمسؤوليات التي تلحق حدث الزواج . وانها لمسؤوليات دفعت بالكثرة الكثيرة ممن انقطع للعلم وشغف بمسائله للنكوص. على أعقابه أمام فرص الزواج — إنهم يحجمون عن الزواج لانهم لو أقبلوا عليه. عدوا أنفسهم كالمجرمين . نظرا لما هم فيه من انشغال وكلف لا يقوون معها على أداء رسالة الزوجية. على وجهها الذي يرضي الضمير والإحساس الإنساني سواء إزاء الزوجة أو إزاء من سينجبونه من أبناء .

ولنا بعد هذا كله أن نتساءل أين نحن من الشعور بالمسؤوليات العائلية على هذا الوجه الاكمل ؟ وهل نحن من هذا الشعور السامي عند ازماع الزوجين على اختيار بعضهما بعضا منذ البداية ؟ حقا إن محكات الإختيار لشريكة عمر الشاب قد تغيرت عما كانت عليه منذ عقدين زمنين . إن لم نقل منذ زوال الإحتلال — فلقد تطورت نظرة الشاب التونسي لقضية الزواج والمرأة عموما. أو إن شئت قلت : شاب الساعة هو على نظرة مغايرة للتي كانت لدى شاب الامس القريب. فمنذ عهد ليس بالبعيد تجد الشاب عندما يتهأ للخطوبة. طيعا سلس الإنقياد لتوجيهات أمه يصدق مقولاتها وآرائها. وحتى ذوقها في المرأة التي ستكون له. هو الذي يقدم على ذوقه الخاص فيها — ويكفي أن رأت أمه وجهها وأن أعجبت بطابعها وبادابها. ويكفي أن فضلت هي عائلتها للمصاهرة ليهرع مسرعا ينشد ضالته في غير ما تريث أو تأمل. وفيما آل إليه أمر الشباب ، أصبحت النظرة على غير ما كانت عليه ، فمحبة الامهات وثقة الابناء بهن، لا تجعل الشباب يخلط بين ما هو له شخصيا... وما هو لابويه... بين ما ينبغي له فيه الإنفراد بالرأي، وبين ما ينبغي له فيه أخذ رأي أبويه ومشورتهما — ولقد أصبح هذا الشاب من النضج العقلي والإجتماعي حتى انك لتجده جاعلا لكل أمر حدوده التي لا يتعداها . فلا ينسيه مثلا الحياء واللياقة حقه، كما لا يعميه حقه عن مراعاة اللباقة واللطف الإجتماعيين — ومن هنا فقد أضحى غير قائل بعشق الآذان، وعلى إيمان بضرورة التعرف المباشر. وعلى حرص ليرى ويتحدث مع خطيبته قبل الزواج... نعم قبل الزواج الامر الذي كانت الدماء تسيل من أجل وقوعه منذ عهد ليس بالبعيد. وإنك لو

استطلعت رأي الآباء في مراقف أبنائهم هذه لقالوا لك في شيء من البلبلة والإمتعاض : "أَوْلاَد الوَقْتْ يِحِبُّوا هَكَةْ".

وانه لمما أصبحت إليه أذواق الشبيبة التونسية الإعتداد المكين بثقافة المرأة. فقد اضحت ذات التعليم والثقافة أقرب إلى الخطوبة من غيرها. وإزاء هذا الوضع ارتد الرجعيون والمحافظون عما كانوا يقترفونه من إثم حجز البنات في البيوتات ، والحيلولة بينهن وبين الخروج للمدارس. وللحياة الإجتماعية من باب أولى – ولعلهم آمنوا بتعليم الفتاة جريا على الإتجاه الجارف القاضي بأفضلية المتعلمة على غيرها. ولذلك فهم يتركون بناتهم يخرجن للمعاهد التعليمية. ولربما يحثون على تعليمهن في العلن. ويرددون في السر حكمة شعبية تقول "المِصِيبَةْ إِذَا عَمّتْ هَانَتْ".

وإنك لتتساءل عن هذا الموقف الذي تصير إليه الشباب التونسي في تفضيله المرأة المثقفة على غيرها. وعندى لا يخرج تعليل موقفه ذلك بأحد أمرين : إما أنه آمن بان التزوج من الجاهلة والحياة معها، نوع من الإنتحار البطيء، أو نمط من الشقاء المر الذي لا يدانيه إلا العيش في قبر أو سجن مضيق. أو انه أصبح يرنو للمثقفات ويصبو للتزوج بواحدة منهن عساه يجد فيها عونا يؤازره على مواجهة الحياة ، أو بلغه شعبية يريدها مثقفة لتحمل معه "وَزْنْ القُفَّةْ" التي لم يجد من نفسه المقدرة على حملها بمفرده. ولم يكن بالتالي في موقفه هذا قواما على النساء، بل هو على انتظار وفي افتقار للعون ، وفي هذا ما ينم عن تخلف النضج وضعف الشخصية.

موقف المرأة من الخطوبة

لم تبق الاوضاع الإجتماعية التي كانت فيها المراة التونسية تساق إلى بيت الزوجية كما تساق الشاة إلى المسلخة ، وساعد على هذا التغير الإجتماعي التشريع التونسي الجديد، وعلى الخصوص "مجلة الاحوال الشخصية". فلقد ضبطت هذه المجلة مكانة المرأة. وشرعت لها القوانين المحددة لحقوقها وواجباتها بما جعل ظلم الامس لها ينقشع إلى غير رجعة.

وانه لجدير بالملاحظة أن المرأة بوسطنا تعطي الاولوية للمكانة الإقتصادية

والمركز الإجتماعي في تفضيل الرجال وتخير الزوج المنتظر — ولعل هذين الإعتبارين يفضلان في الغالب الجانب الثقافي الخلقي في شخصية الشاب. وعلى هذا المعنى لا يهم المرأة ان علمت بعلاقات خطيبها ومعاشراته الغرامية قبل التقدم منها، وان ذلك لايثنيها أبدا من أن تتقبله كزوج — في حين لو علم الخطيب بأي علاقة يشتم منها الود والمحبة بين خطيبته وأحد الناس. لكفاه هذا العرفان التخميني أو الواقعي ليتراجع ويهرب كلية - وبالتحليل يمكن القول بأن الجانب الاخلاقي عند الشاب يفضل غيره. وعند المرأة الجانب الإقتصادي والإجتماعي أهم مما سواه. وهكذا يكون الشاب مريدا الاخلاق في زوجته حتى لو كان هو على غير خلق فاضل، والمرأة هي على النقيض تحرص على أن تكون متخلقة لتنال إعجاب الشاب، أما انها تحرص على الاخلاق في اختيار الزوج، أو انها تشترط ذلك فهذا ما لا يطرد الاخذ به حسب الواقع العياني. وعندي لهذا الموقف أحد تفسيرين: إما ان هذه المرأة ما زالت على تخلف نسبي، يدفعها الفضول للزواج.. وللزواج كيفما اتفق، لا يهمها فيه الموضوع بقدر ما يهمها تخطي العقبة الكأداء. تلك العقبة التي باجتيازها تزول ازمة الإنتظار ويمحي القلق الناجم عن توقع البوار، وبالتالي الشعور بالدونية والصغار إزاء الرفيقات والتربيات اللائي تزوجن - وعنداختيارها تحصل التعادلية الذاتية. المتسببة في التوازن والإستقرار الوجدانيين. هذا مفسر وجيه لزهد الفتاة في اخلاق خطيبها، وعدم اعطائها لهذه الناحية فيه الاولية في التقدير والتخير - وعلى وجه تحليلي آخر يمكننا أن نرى الفتاة في موقفهاذلك تنزع عن عقيدة تدين بتمييز الرجال عن النساء فيما يخص سلوكهم الخلقي قبل الزواج. فهي قد توطنت على الإيمان بالا خطر على الذكور، ان هم لعبوا واتصلوا بالخطيبات المزعومات أو الوقتيات... الامر الذي يجعلها لا تنتقص الرجل إن هي سمعت عنه أو حتى راته راى العين، يخالط ويرافق. وانك لتجد من الفتيات من لا ترى في اتصال الخطيب بالنساء الاجنبيات أمرا مشينا أو مزعجا، بل تحمله على الضرورة أو العادة الفاشية، إن لم تر في ذلك فحولة وقوة شخصية يزيدانها ايمانا بقيمته وتعلقا به —

وفي مقابل هذا الموقف نجد الشاب يبالغ في الحرص على أن تكون

زوجته المنتظرة بدون ماض. يريدها بلغة بالغة الصراحة على بكارة مادية وأدبية... وانه لو قيل ما قيل إن صدقا وإن كذبا. لانفعل وجعل وجهته فورا الى امرأة اخرى يظنها أو يجتهد إلى أنها على غير ماض... وانك لو استفهمت الشاب عن سبب اشتراطه الاخلاق في الخطيبة دونما توفر للاخلاق عنده. فلسف لك الموقف وخرجه على نحو تقييمي اجتماعي — وادعى اختلاط الإنساب في خطا الزوجات بالاضافة إلى المعرة والشناءة الاجتماعيتين — ولكن مهما يكن من أمر خطورة التفسخ الخلقي عند النساء. فالذي لا ينكر انى جانب ذلك ان اخلاق الازواج من الخطورة البالغة على مستقبل العائلة. إذ لامراء في أن الرجل الذي لم يألف الإستقرار لم يكن على استعداد ليسوس عائلته باسلوب يجعلها هانئة مستقرة. وقديما قال أحدهم: "فاقد الشيء لايعطيه" —

ولقد توجد ببيئتنا آثار للنظرة التقليدية والمتجنية على المرأة. فمن هذه قول القائل: "النِّسَاءْ مَا دْوَاهُمْ كَانْ العْصَا" والعجيب في الامر أنني وقفت على مثل شعبي يبين لي مدى تعود نساء الامس على الإذاية. ومدى مألوفيتهن بالضرب. ففي قولهم على لسان المرأة: "لاَ قَدْرْنِي وَلاَ قَدْرْ سِيدَهْ لا لزْزَامْ بِجَنْبُهْ وَضَرْبْنِي بِيدَهْ" ما يجعل للضرب مظهرا ينم عن المحبة والتقدير. فقائلة هذا المثل تحتج وتلوم زوجها ان ضربها بيده، وفي ذلك عدم الإحترام لها ولوالده. إذ المفروض أن يؤذيها "بالزْزَامْ" بالعصا الغليظة لا بيده. كما لو كانت المحبة الشديدة تتقنع بالاذاية الشديدة. حتى لتصبح هذه عنوانا لتلك. أو أن الإذاية الشديدة منظور إليها على أنها مظهر للرجولة الناضجة. بما يكون بها الإبن حائزا لرضى والده وتقديره —ومن آثار العهود الغابرة التي توصي باستعمال العنف مع الزوجة قولهم: "اضْرَبْ القَطُوصَةْ تِتْرَبَّى العَرُوسَةْ" ومن الاثار الحكمية المعنون لمعتقد الرجال في جنس النساء قول القائل: "النِّسَاءْ زِرِّيعَةْ ابْلِيسْ". ولو أن رجلا احتدم مع زوجته فعاملها بعمليات هذا المنطق المتعسف لكان مثاله الفشل الذريع. إذ المرأة التونسية حصلت الآن على حقها. وإن لم تكن على التحديد شاعرة بحدود هذا الحق. نتيجة لعدم تعلمها في بعض الحالات — فلكم طالبت باسم الحرية ما به التلويث لسمعة الزوج والاطفال. ولكم تمس بحقوق

الزوج في ادعائها الاستقلال بالرأي ... وهكذا أصبح الرجل والحالة هذه يتطلع . على الاقل إلى معرفة امرأته الجاهلة او المتعنتة . حتها على وجهه الصحيح الذي تنص عليه مجلة الاحوال الشخصية — ومتى كان من المتعذر التجرد من رواسب الماضي . والتخلص منها كلية، فانك تجد من الازواج من هو على شدة وغلظة غير شرعية في حياتهم الزوجية . ولو انك تطلعت الى رأي بعض النساء العارفات في هذه الحال التي يعامل بها الرجل امرأته في شيء من العنف . قلن لك في وصف، : "خَانُه وَقْتُه دَار عَلَى مَرْتُه" —وبهذه الحكمةشيء من التحليل الصائب لسلوك الفج إذ كثيرا ما يتخذ الرجل ممن له عليه اشراف ورعاية ، مثل الزوجة والابناءبديلا عن مصدر الإحباط — فلقد يكون للزوج رئيس أو مدير في العمل يعامله معاملة فيها احباط لرغباته او مس بمشاعره ، وبما أنه لا يقوى على مكاشفته بردود الفعل العدوانية المناسبة يلتجيء الى الكبت. ولكنه بعجزه هذا عن تصريف عدوانه الموجه ابتداء إلى رئيسه رمز النفوذ والسلطة ، فانه كثيرا ما يتحول عدوانه ذلك في الإتجاه، فيرتد اما الى الزوجة أو إلى أحد المنظورين منه، مثل الابناء والخدم — ولهذا نلفي باشارة المثل السابق تحليلا واقعيا لسلوك المتسقطين لهنوات الزوجة والأبناء. فهم نظرا لعجزهم عن مواجهة الحياة في مسؤولياتها الثقيلة، ولعجزهم عن فرض قيمتهم ومكانتهم ، يلتجئون شعوريا أو لا شعوريا الى حيل ملتوية وشاذة. يوهمون بها أنفسهم على أنها ذات مكانة وقيمة، كأن يضطهدون مثلا زوجاتهم ومن اليهن من اخوة صغار وأبناء وخدم .

المهـــور

من الامور التي تقف في وجه التزوج وفي وجه الإسراع فيه المهور المشطة، فعلى الرغم من التدرج الملحوظ نحو تبسيط وتيسير هذا الشرط فان الحرص على أن يكون "نقد المرأة" مرتفعا باهضا من الامور التي ما زالت موجودة بأوساطنا ... وإذا استثنينا حالة المثقفين والمثقفات. فان أولياء المرأة يرون في اشتراطاتهم المشطة، اما اعزازا لهم وللخطيبة أو امتحانا للخطيب ولصبره. فكما لو كان محك الحكم على صلوحية هذا المتقدم من الفتاة، قدرته على

الشراء والانفاق ليس غير - وفي نطاق مشاكل المهر وما تحف به من شروط والتزامات تجمل بنا الإشارة الى أن هذه المعيقات المؤدية الى عرقلة الزواج السريع وابطاله أحيانا هي التي هونت من نسبة الزيادة في عدد سكان الجمهورية التونسية - فلو تيسر الزواج لكل راغب . وأحرى لو حثت السلط عليه - كما كانت الحال بألمانيا النازية - لآل الامر الى تفاقم البطالة والجوع . المرض وحتى الإجرام والرذيلة - وهنا ان انزعج الشاب من سنن المهور وغلائها. اشفقنا عليه وودنا أن لو لم يكن على تأزم مريع . كهذا الذي لاحول له فيه ولا قوة - لكن ان نحن نظرنا الى مثل هذا الشاب باعتباره سيصبح أبا في يوم منتظر. وإنه ربما لما وجد القوت الكافي له ولابنائه نظرا لضعف الموارد القومية نسبيا لعديد السكان. لآمنا فورا بقوله تعالى في أشرف الكتب وأقدس التنزيل : "وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم"

على أننا ان نحن لم نستصوب موقف الرجل اليهودي عند شططه في طلب المال مقابل تمكين الخطيبة من الزواج منه ، فاننا كذلك لا نرى معقولية في اعتبار الخطيب كالبقرة الحلوب فنمضي الى طلب الممكن وغير الممكن منه. دونما اعتبار للاستطاعة والإمكان. ولقد جاء في الادب الشعبي قولهم : "كبْر النَّقْد مَا يِكَبّرْ سَعْدْ" على اعتبار أن السعادة الزوجية - وهي أهم مطمح لكل من الزوجين - غير متوقفة على مقدار المهر وارتفاع قيمته - وانه لمن المعقول جدا أن يراعى في الزواج الاهم قبل المهم. وأن يبجل فيه الحاجي على الكمالي. وأن ينظر اليه على أنه حدث له ما بعده. وانه آخر الامر ليس هو بصفقة تجارية يراد فيها الغنم. ويتصيد بها الرزق والربح الجزيل - على أن الغنم الحقيقي والنهائي هو أهم ما ينبغي وضعه نصب الاعين ، وأعني بذلك التوافق والتفاهم وبالتالي الإنسجام ودوام العشرة.

الــولايــم

وكما أن المهور تقف حجر عثرة في سبيل الزواج والإسراع فيه. فان نفقات الولائم التي اعتاد الناس اقامتها عند الافراح. لمما يؤجل مواعيد الزواج. ومما يجعل الزيجة من أعوص وأشق الغايات - ذلك أن النظرة

العقائدية والعرفية إلى الافراح والاعراس بالخصوص تملى الاطعام، بحيث من شرائط تلك توفر هذا — ومتى كان في هذا الموقف الاخذ بسنة فيها من الكرم والفضيلة الشيء الكثير، فان ما يكتنف هذا الإطعام من روح التنافس في الظهور بمظهر الكرماء، وما قد يصحبه من رياء وتبذير في بعض الأحيان يجعلنا نؤمن بان في تلك العادة الإجتماعية نوعا من النفاق. سيما إذا أطعم المرء — جريا على العادة — وما كان باستطاعته الإطعام. أو انه تداين في سبيل ذلك. فهو والحالة هذه يطعم عن ضيق لاعن سعة. ويتكرم بمال غيره الذي وضع فيه ذمته أو امضاءه. فمثل هذا النفر عند استقباله أفواج المدعوين يبش ضاحكا ولكنه يخفي نقيض ما يظهر... يخفي حزازات الضيق من أن لم يكن على سعة تمكنه من ترضية نفسه باطعام الناس الطعام الفاخر.

والغريب في الامر أن الولائم لا يدعى إليها الفقراء بقدر ما يدعى اليها الموسرون. ولشد ما تكون حاجة اولئك اليها — ولما كانت الوليمة في عداد المعروف. وبكل معروف صدقة، كما جاء في الاثر فان تصريف هذا المعروف، كان الاجدى أن يتجه الى أحوج الناس اليه من ذوى الفضيلة وذوى الخصاصة والضمير الديني، قبل سواهم من اعيان التقدير الإجتماعي ورجال الابهة والنفوذ. الذين يدعون من أجل التظاهر أمامهم بالنعمة. هذا وليس في كل ما تقدم ما يحمل على الدعوة لإبطال الولائم، أو القول بعدم جدواها بل، كل الذى نصبو ونريد هو ان ينفق كل ذي سعة من سعته، حتى لا تفقد الوليمة معناها الصادق الامين، وحتى لا تخرج عن مدلولها عند الداعي والمدعوين اليها — أما أن تباع العقارات والاطيان كما كان يحدث، وأن يتداين بالرهن أو بالذمة أو بالصكوك النقدية، من أجل امتاع الناس بالطعام الشهي الفاخر، اظهارا لمعالم الفرح واعلانا لمشاعر الهزة مع اخفاء أحاسيس الضيق والاحراج فهذا ما لا يقول به عاقل، اذ ههنا تصبح فرحة الاعراس متلوة بشقوة الديون ومضايقات الدائنين. ولقد قيل منذ القديم: "بئست اللذة التي أعقبتها الحسرات"، وقديما قال الحكيم التونسي ايضا: "يَا مِبَيَّضْ مِنْ بَرَّهْ آشْ حَالِكْ مِنْ دَاخِلْ" في مضمار النقد لاولئك الذين يهمهم الظهور بمظهر الكمال والابهة، ولو على حساب المساس بحقيقتهم الباطنية الخفية —

التقليد والتقاليد

من البداهي أن تكون تربيتنا تقليدية المنزع. إن نحن أثبتنا أخذها بدستور الحكمة التقليدية في معاملتها الطفل . واذا تعذر – على العموم – انعدام روح التقليد من أي تربية انسانية مهما كان محتدها ومستواها في النضج. فان الفارق الجوهري بين الإتجاهات التربوية. قديمها وحديثها. رجعيها وتقدميها، يتمثل في مستويات ودرجات. الاخذ بمنطق التقليد والتقاليد. اذ ما من تربية تستطيع التبرأ الكلي من هذا التقليد وتلك التقاليد . فالإتجاه الى المحاكاة من القضايا المعترف بها في علم نفس الطفل. ومن الظواهر المطردة والعيانية في سلوك الاطفال وحياتهم اليومية. واستناداً الى هذه الحقيقة يمكن اعتبار التقليد من العوامل التربوية اللاشعورية ذات التأثير القوي على تربية الطفل عموما – هذا وللاباء كذلك نزعة تكاد تكون جبلية لتوريث أبنائهم أحسن ما يرونه لهم من السجايا والشيم . وبالتالي نظرا لاتجاه الطفل الجبلي نحو تقليد محيطه الإنساني . ونظرا لرغبة ولي أمر الطفل في أن يحيا هذا الاخير على ما عاش هو عليه. فان التقليد يتبع ويطبع كل تربية على الإطلاق . وهكذا تصبح . إزاء هذا التحديد كل الإتجاهات التربوية الموصوفة بالتقليد من قبيل التربيات التي غالت غلوا واضحا في التعويل على التقليد – وعلى هذا الملحظ . عندما يقال تربية تقليدية . فان المتبادر الى الذهن بها لاول وهلة . ذلك الإتجاه التربوي الآخذ ، أكثر من غيره ، بالتقاليد في معاملة الطفل ورعايته . في توجيهه وتنشئته التنشأة الإخلاقية والاجتماعية. التنشأة العقلية والحسية الجمالية. –

إننا ههنا نتساءل : هل أن تربيتنا العائلية مدمنة على الكرع من التقاليد، مسرفة في الاخذ بمملياتها حتى أنه ليصح اعتبارها تربية تقليدية المشرب ؟! أم أنها من الاقبال على التقليد والتقاليد. الا انها تترك المجال للاستقلال ،وتتيح للطفل فرصة للتحرر والإنطلاق، وتهيء له الاجواء المواتية

لبناء شخصيته على النحو الذي تكون فيها تلك الشخصية. ذات ملامح فريدة وذات طابع متميز عن الآباء والاجداد، سواء في المميزات والصفات الفردية أو حتى في أسلوب العيش ونمط السلوك ؟

الواقع أننا لو تتبعنا المنطق الحكمي التقليدي لنتبين ما عسى أن نتخذه ركازا للحكم على تربيتنا العائلية بهذا الصدد، وجدنا أنفسنا ازاء آثار حكمية كثيرة. منها ما يحث على الاخذ بالتقاليد والتعويل عليها دون سواها. ومنها ما هو مناهض للروح التقليدية الى الحد الذي لا يمكننا معه الجزم. نظرا لتعدد الملامح. بتبعية تربتنا الى التقليد فقط، أو للتحرر والإستقلالية فقط. بل يتأتى نعتها بالنحاتين معا لتوفر المستندات الحكمية الشعبية المزكية لكل من الإتجاهين المتقابلين - ففي الاثار الشعبية أمثال دارجة عدة توصي إيصاء ملحا بتمكين الطفل من تلقائيته وانطلاقته الحرة، بإتاحة حرية الإختيار والإستقلال بالرأي، فيما يتعلق بمشا كله ومجمل أموره وشؤونه. كما اننا لنجد أيضا عددا عديداً من الحكم الشعبية. تحض على تشكيل حياة الطفل بما يجعلها قريبة الشبه من حياة آبائه وأسلافه. ومن نموذج العيش الذي الفه واستحسنه السلف الصالح أو كما قيل...

وإنا إزاء هذه الثنائية في الإيمان العقائدي التربوي، سوف نحاول قبل الحديث عن النزعة الاستقلالية بتربيتنا التقليدية أو المسماة تقليدية - الوقوف على مكانة الروح التقليدية في العمل التربوي. ومدى تشجيع المنطق الحكمي الشعبي على الإقتداء بالاسلاف والتأثر بهم وباثارهم - يقول الوالد العادي لابنه : "كَلاَمْ لُولِينْ حِكْمَةْ" مشيرا بذلك الى ضرورة الوثوق والإهتداء بمقولات الاسلاف - وإنه ليبدو في هذا الاثر الايعاز القاضي بالإئتمار والسير على هدى من نصائح القدامى واضحا جليا. ولست واجدا سببا لادعاء عصمة الاباء الاولين، حتى لا تحوم حول آثارهم ظنة أو تشكك. سوى هذه المكانة التي اكسبتها اياهم السنون الخوالي. وتأثرا منا بايحاء مكانتهم في أنفسنا نراهم لا يخطئون ولا يمكن أن يتطرق الى نظرهم وبالتالي إلى أحكامهم سوء التقدير وفساد التفكير. وتعقيبا على هذا الإنحدار لتصديق القدامى المتمثل فيما دأبت الناس على الاخذ به من وصاياهم وتوجيهاتهم نشير إلى الضلال الذي عاشت عليه أجيال متعاقبة

نتيجة لحملهم تفكير الاسبقين على الصحة المطلقة ــ كما نشير الى ثورة عدد عديد من الفلاسفة والعلماء على السنة المألوفة الداعية لمقايسة التفكير الحالي بتفكير أعلام الامس الغابر. وانه لمن الحقائق المسلم بها أن شرارة النهضة الاوروبية الحديثة قدحها شك المتشككين في التراث التقليدي للمعرفة ـ ولك ان تقول ما أجمل التشكك المبدئي في آثار القدامى الى أن يتبين صدقها من خطلها بداهة أو بادلة قاطعة ــ ثم ما أحرى المربين ــ عموما ــ باعتماد البداهة العقلية لدى الطفل . و بدلا من جعله يفعل مايرى له صدقه وحسنه. يستثار فيه دافع الإمعان والتدبر في الامور ليخرج آخرا بنزوع ملؤه الإيمان والإقتناع البديهي ــ وبدلا من أن نملي على الطفل روح الإعتداد بالقديم السالف. غثه وسمينه. أولى بنا جعله في موقف يؤمن فيه بعثار القدامى وبامكانية زلل اقدامهم. وبذلك لا يكون طفلنا امعة متخذا من مقولات الاولين حكمة مطلقة ـ وينبغي عدم الاستسلام امام حث تلك الحكمة القائلة : "كَلَامْ لُولِينْ حِكْمَة" فهي حقا قد تتضمن الحكمة ولكن من هذه الحكم ما كتب عليه الإفلاس. ومنها ما هو شعوذة. ومنها ما هو عين الخطا الشنيع والبهتان الرقيع...

الوفاء مع الاقتناع

إننا نريد ونمجد الوفاء للاقدمين. ولكن مع هذا نطمح الى الإقتناع بوصاياهم وبحكمهم التي خلفوها تركة. أوصونا بالإنتفاع بها. و بصيانتها وحفظها على أنها أداة وصل بيننا و بينهم ورابطة ولاء تجمعنا وإياهم في صعيد الذاتية المشتركة ــ ولعل المنطق التقليدي يشير إلى هذا التعلق الوفي بروح السلف والسلفية عند قولهم "الله لا يبَطّلْ لينَا عوَايدْ". فكما كانت التربية الكونفوشية ترفع إلى درجة العبادة محاكاة الاسلاف. ومحاولة العيش على غرار ما أوصوا ووجهوا في الكتب المقدسة. كذلك الامر ههنا. تأخذ العادة الإجتماعية قدسية في نفس المواطن. حتى انه ليبتهل الى الله الا يغير عليه عاداته. التي ترمز بلا شك الى معنى الوفاء للماضي: ماضيه الشخصي اذ هو عاش عليها أمدا طويلا. او ماضيه الإجتماعي باعتبار العادة من مخلفات الاجيال التي نحن لهم وارثون. فهو يريد الحفاظ والإحتفاظ بعاداته لانها

محببة الى نفسه — وورث تعلقه بها عن أصوله، وازداد بها تشبثا لتقادم العهد وتزايد المألوفية بها . هذا وليس المقصود هنا بالعادة في دعاء الحكيم الشعبي التونسي، العادة الشخصية الفردية، وانما يقصد بها على التحديد التقاليد الإجتماعية المتعارفة بين الجميع. فهي التي يدعو الله مخلصا أن يبقي عليها فلا يبدلها له — وسواء أكانت هذه التقاليد الاجتماعية حسنة،أم سيئة فهي ذات قيمة ومكانة في نفسه... وهي كذلك حتى لو بدت رجعية ومتخلفة ولم يعد من اللائق،في العصر الحديث العمل بها والاخذ بناموسها . وانه ليكفيه ان كانت تقاليدا مرعية لتكون ممجدة ومفضلة . مهابة وصادقة.

بداهي في هذا المثل العامي حينئذ روح التعلق بالماضي .ومعنى الوفاء للقدامى .والوثوق التام بسداد نظر السلف الصالح . ونحن إذا كنا على حمد واستحسان لمقابلة ماضينا بالعواطف النبيلة والمشاعر الوفية فليس في هذا إيمان باقصاء الرغبة الطبيعية القاضية بان يعيش المرء على نحو ما يرى فيه النضج والجدوى الفردية والجماعية. إذ ليس من المعقول في شيء أن نفرض على الجيل طريقته في العيش. متى كان هذا الجيل غير مقتنع ولا مستحسن لما أراده السلف وأرادناه له. واحرى إن هو لاحظ مجافاة ما بالسلفية وتعارضا بينها وبين روح العصروتقدم العصر . ولقد يسايرنا هذا الجيل الحاضر في ظننا الحسن بتفكير القدامى وذوقهم. فيكون عند عاداتنا التي قضى بها تفكيرهم وذوقهم. الا أنه يثور إزاء ما تبين له فيه الخطأ الشنيع ، ولعله يستفهم استفهاما إنكاريا فيقول : « لماذا التمسك بخطا القدامى؟ ألان خطأهم يصبح صوابا بطول الزمن وتقادم العهد به ؟! !

وإذا أنت تمسكت بما ثبت تخلفه من التقاليد الإجتماعية، ودعوت للتشبث به وفاء منك للاصول والجدود . إذ أنت تتطلع — على الدوام — الى الحياة الماضية في حياتك الحالية محاولا تشكيل هذه، على صورة ونمط تلك ، قلت ان انت تمسكت بهذا. رغبة منك في الوفاء، فان لحظة امعان وتعقل، تجعلك توقن بان الوفاء لانفسنا من جنس الوفاء للجدود. وإن الوفاء للحاضر من جنس الوفاء للماضي... وإن الوفاء للمستقبل من جنس الوفاء للحاضر

والماضي معا.. وباعتماد هذا التحليل يصبح من غير الوفاء للماضي والمستقبل. العقوق بحاضرنا عندما يدعونا هذا الحاضر لالغاء التعامل على أساس متخلف. ولترك بعض العادات التي أثبت التقدم العلمي بطلانها أو تأخرها. ثم الوجود في الواقع يبتدىء وينتهي عند الموجود. ومن هنا ماذا يهم الاسلاف ان كنا لبسنا لباسهم. وأكلنا أكلهم. وعشنا على ما عاشوا عليهمن أسلوب نموذجي معين. فلقد تؤمن معي أن الاباء يسعدهم ما يسعد ابناءهم. وكذلك الامر نسبيا للاسلاف فهم ينعمون بنعمتنا. ولئن كانت لهم حقوق علينا فلما ذا نكون أشد حرصا على حقوقهم من أنفسهم ذواتهم؟!! ثم لماذا نقف في التمسك باثارهم. موقفا متحجرا كما لوكان أسلافنا على تحجر عقلي لا يعي الصالح. ولايتعقل الاجدى والافيد من الامور؟!!

تمجيد العادة

وللمرء أن يضحك ما شاءت له امكانيته المزاجية ازاء ما سأذكره من مثل عامي. نراه على غاية من الإفلاس نسبيا لهذا العصر. عصر الذرة والصاروخ. يقول التونسي: «يَا سَعْدْ مَنْ خَلاَّلُهْ بُوهْ عَادَةْ، وِالاَّ فَرَسْ وَلاَّدَةْ» مشيرا بذلك الى أن نفع العادات كنفع الفرس الولود. ولمناقشة هذا المثل يمكن القول بان وارث الفرس، سواء أكانت عقيمة أم ولودا. لا أظنه يكون من الخير العميم في الوقت الحاضر، كما كانت حاله تلك في الايام الخوالي. ثم هذه العادة سواء كانت هي الاخرى موروثة عن الآباء، أم اكتسبناها نحن بتربيتهم الموجهة لنا. لا لزوم في أن تكون من الفائدة والنفع لنا بالقدر الذي تنوه به هذه الحكمة المأثورة... وعلى سبيل المثال ألم يكن الآباء آثمين في حق أبنائهم. لما عودوهم الإتكال عليهم في كل شيء... وعلى أن يصيبوا من الحياة ما أرادوا دونما عناء أو بذل مجهود؟!! فمثل هذه العادة التي يبقيها الوالد لولده سوف تجعله يتجرع بموجبها آلاما وآلاما.. ولسوف يشقى بسببها في مستقبل أيامه عندما يشعر بخيبة الامل في ضيعة الحياة... فلقد تعود سابقا على ان يلفي الرغبات هينة... طيعة.. سهلة المنال ولكن، عند انعدام السند أوتخلفه عنه، سوف لا يقوى المرء على قدميه، وهكذا يورث ضمن تعوده ذلك روح التمرد...

ويهيأ لعدم الإعتراف بحدود الواقع، وبالتالي للثورة على النظم والأوضاع القائمة، وفي إثر هذا التمرد ما فيه من التعرض للجزاءات الزجرية أحيانا كثيرة.
وإننا إذ نلاحظ صيغة هذا المثل نلمس مدلول السعادة في نظر المنطق التقليدي، فهي تتم نتيجة لوراثة الإنسان بعض الشيء إما عادة أو فرس ولادة عن آبائه — وإنك لتقول لماذا لا يوجه المرء إلى افتكاك السعادة. فيسعى بمجهوده الخاص للاكتساب، هكذا بكد يمينه وبعرق جبينه، يتعود تحقيق الرغبات وإصابة الأهداف التي قد يكون من بينها امتلاك الخيل والنوق... وإن نحن — على وجه آخر — حملنا العادة، في المثل السابق، على التقليد الموعي والتعود الجماعي، عندها تكون السعادة حقا بالتقدير الإجتماعي، إذ كل من يأخذ بما فيه موتاة لمشاعر القوم ينعم باحترام الناس وتبجيلهم. ولكن مع هذا الإحتمال الممكن فانالكثير الشائع في مراعاة بعض العادات الإجتماعية عدم اقتناع بجدواها. وعلى سبيل التأكيد لهذا، هل يحق كل المتحجبات ببيئتنا مقتنعات وعلى ايمان بصلاحية الحجاب ؟ فلقد تجدهن، نزولا عند رغبة الوسط يضعن الحجاب، إلا أنهن في مناشدتهن رضى الوسط والتوافق الإجتماعي، يضيعن توافقهن الذاتي. وفي هذا الشقاء لا السعادة. ومن هنا كثيرا ما يبتاع المرء في عاداته سعادة بسعادة. وكثيرا ما ينشدرضي الناس على حساب بليته الفكرية، عند ما يضطر للقيام بعادات لم يكن بها نفع، ولم تكن هي ذاتها بمجدية بأن أثبت التطور تخلفها وسخفها.

التوافق الاجتماعي والذاتي

وفي النهاية يمكنك الخروج بنتيجة ثابتة، وهو أن الشقاء قد يكون في المحافظة على التقاليد مثلما قد يكون بإلغائها، وإن الفارق بين ما يسعد منها وما يشقي، هو في القرب أو البعد من الزمان والوجهة الفردية الخاصة — فمن التقاليد المتخلفة من الوجهة التربوية أو الإجتماعية مثلا، ما يسعد به صاحبه حتى انه ليشقى الشقاء كله، لو طالبناه بتركه والإبتعاد عنه، كما أنك تجد من التقاليد الصالحة، ما أجمع أهل الحل والربط، أهل السفه والمعرفة، على انها صالحة ومجدية للفرد والجماعة. غير أن من الناس نظرا

لاتقاد ذكائهم واتساع مداركهم. يشقون بها الشقاء المر، وإن هم قاموا بها فنزولا عند مرضاة البيئة التي يهمهم الا يمسوها في مشاعرها وأحاسيسها العامة. ولوبقوا مع نبلهم ذلك فيما يشبه المرجل. ومن هؤلاء المتمردين الشواذ: الشعراء. وفلاسفة كثر، ومن لف لفهم مثل الفنانين... فهم الذين يدفعون عجلة التطور الى الامام.. ويضحون في سبيل التقدم بها، بسمعتهم وبحياتهم أحيانا كثيرة... ولكم كانت أوساطنا تضحك ملء شدقيها مزدرية بالسخف والتنكب الوارد في نص أغنية تونسية طالعتنا بها الاوساط الفنية منذ ثلاثة عقود زمنية أو زهاءها. واعني بذلك اغنية مطلعها: "يَابَابَا خَلّيني نُخْرُجْ عِرْيَانَهْ مَا فِيهَا بَاسْ" والتي أخذت شهرة بالغة بين أغاني عصرها. نظرا لما تضمنته من خدش في المتعارف من العادات التقليدية القاضية بستر النساء كستر الغورة. وعندي لاشتهار صيت هذه الاغنية ابان ظهورها مبرر تحليلي وجيه. وهو أنها صادفت في معانيها، الدواعي المكبوتة التي لا يتجرأ شباب ذلك الوقت على الإفصاح عنها بلغة الجد. على هذا المعنى أقبل الشباب بجنسيه للتغني بهذا المنطق الهزلي، كما يخاله الاباء وأولياء الامور، يحسبونه هزلا وما هو بالهزل، وإنما هو منطق أصيل التغلل في نفوس الشبيبة الطامحة للحياة ولمزيد من الحرية. وانك لتعجب آخر الأمر كيف أن من الهزل ما ينقلب الى جد. فالذي أنشده المغنون سابقا لتسلية الشباب، هو ذا قد آل اليوم إلى واقع نعيشه الآن. ولله در علي محمود طه في قوله:

رِيَ الشعوب وقوتها احلامها ... ان الخيال إلى الحقيقة سلم

التقليد المهني

ومثلما كان التقليد في التعود على عادات الاباء أو في حث الجيل على الاخذ بها في حياتهم وسلوكهم عموما. فاننا نجد الروح التقليدية تتخطى هذا المجال الى مجالات المهن والاعمال الحيوية. ففي قول التونسي "صَنْعَةْ بُوهْ لاَ يِعَايْرُوهْ" ما يعطينا فكرة عن تفاوت وتفاضل الصناعات والحرف فيما بينها، وإزاء هذه النظرة الفارقية فان الطفل ينشأ في وسط تحبب له فيه منذ فجر حياته، بعض الصناعات ويحقر له منها نماذج معينة أخرى - فلقد يحيا مشهدا كان فيه أحد الناس معيرا بما عرف به من حرفة

يقتات ويقيت منها عياله. ولعله يعلم ما شاع في وسطه من أن فلانا رفض تزويجه ابنته من حلاق وقصاب لاحتقاره وانتقاصه حرفتهما – ولقد يصغي إلى حدث كان فيه أحد الناس متعلقا بفتاة غاية في الخلق والاخلاق، ولما أزمع على التزوج منها، وهم بخطوبتها تراجع لأول وهلة، ذلك لان والدها وجده محترفا لما لا يصادف تقديره وتقدير الناس، من الحرف التي اصطلح عليها الوسط بأنها مستهجنة ومحتقرة – ولقد تواصى الناس بالتفضيل والمفاضلة بين الحرف، حتى تبرم الشباب ببعض الحرف المنتقصة. وعندها لم ترد الحكمة التقليدية اعتبار الوارث لصناعة أبيه أيا كانت هذه الصناعة – منتقصا ومحتقرا – فقالت بأن لامعرة في صناعة الاب. حفاظا منها على التقاليد وتمجيدا لروح التقليد. القاضية بتوريث الاباء صناعتهم لابنائهم. فهي والحالة هذه تشجع على توارث الصناعات والحرف بما فيها من شيق ومشين. وتقضي بان لا انتقاص للاحفاد عندما يقبلون على احتراف صنعة الاجداد.

هذا وفي هذه الحكمة رواية أخرى يتبدل فيها ضمير الغائب بضمير المخاطب، فلقد سمعت نصها يروى كما يلي: "صَنْعَةْ بوكْ لاَ يِعَايِرُوكْ" وهنا يتبدل المعنى من اللهجة التقريرية إلى صيغة الإنشاء والامر. فيصبح معناها الحث على احتراف صناعة الاب، وعلى امتهان حرفة الوالد. لأن من لم يفعل ذلك عد من الصغار وتبعته المعرة – ويزكي هذا التأويل في فهم هذا الاثر، قولة دارجة تضرب على وتر واحد مع التي نحن بصدد مناقشتها، ونعني بها قولهم : "وِينْ خلاَّكْ بوكْ عِيشْ" –ففي عموم هذا التوجيه، القول بضرورة التقيد بصناعة الآباء لا بسواها، إذ الإيصاء نجده هنا قاضيا بالحياة على ما تركنا عليه آباؤنا ، داخل في ذلك العمل الحيوي الذي يقتات منه الفرد.

وانه لغريب أن توصف بعض المهن – في بلادنا – بالدونية والضعة، والاغرب من هذا، أن هذه الدونية اللاحقة ببعض الحرف هي ليست مطلقة بل هي نسبية لجهات دون سواها من جمهوريتنا. فما من قائل مثلا بأن المهن المحقرة هي كذلك في نظر جميع أفراد المجتمع باسره. بل انها

محقرة عند أوساط وجهات معينة، في حين نجدها هي نفسها مبجلة أو عادية في جهات وأوساط أخرى — ففي قول الاثر التونسي : "الهَامِلْ فِي التَوَانسَةْ قَهْوَاجِي. وَالهَامِلْ فِي الجَرَابَةْ كَنْتَاجِي" ما يعطينا نظرة أهالي تونس العاصمة في مهنة أصحاب المقاهي. ووجهة نظر أهل الجزيرة في حرفة الطبخ — وبداهي أن لا معرة للتونسي الحضري من احتراف الطبخ. إذ في نص هذا الاثر الشعبي. لم يرد انتقاص لهذه الحرفة من أهالي تونس العاصمة. كما أنه لا شناعة ولاحرج من احتراف ابن الجزيرة حرفة المقاهي، إذ لم تستنقص هذه الحرفة من أهالي جربة — وإنه لمنطق تقليدي يستسخفه كل ذي بذرة عقل. والا كيف يتصور تدهور اخلاق صاحب المقهى، لا لشيء إلا لانه يملك مقهى أو يعمل بالمقهى ؟!! وما قلناه هنا في حرفة المقهى نسوقه لمن ينتقص مهنة الطبخ.

من العقـــد النفسيـــة

ولقد يبلغ حد التأثر بمنطق التقاليد في نظرتها لطبيعة الحرف إلى أن يفضل الفرد منا البطالة على العمل. والكسل على الاكتساب. متذرعا في ذلك بحجة تقليدية باهتة كأن يقول لك : انني لم أجد حرفة تناسبني أو عملا يليق بي. نعم إن التربية التي تلقاها هذا النفر من الناس جعلته هكذا، لا يحترف الا ما يراه حسنا أو مشرفا له أمام الناس. ولكن أية قيمة يدعيها هذا الفرد، ان كان يحيا عالة على ذويه وعلى المجتمع بأسره، حتى يترفع عن المهن والحرف. فالاحرى به — والحالة هذه — أن يرى في أي احتراف وفي أي عمل مكرمة وعزا، لا يحصل عليهما بالإنتظار العاطل، لما قد يتهيأ له من فرص العمل المواتي. فمثل هذا الابي المضلل في فهمه لطبيعة الحياة، يحيا فريسة لعقدة حبكتها في نفسه تقاليد وعادات مضرة أو أصبحت كذلك. ذلك لانه يرى مقامه أحط قيمة وقدرا عند احترافه مهنة، حقرتها في نفسه تربيته، مما لو بقي عاطلا. وفي هذا التقدير الخطل الواضح، إذ ما من عمل الا والبطالة اشنع وأذل منه. وما العباد الا على كراهية الله للعبد البطال، ومن هنا فالخوف من تحقير الناس لمحترفي الاعمال المصطلح على تحقيرها، ليس هو في محله اذ يهرب المرء من الضار عرفيا.

فيتمع فيما هو أدهى عمليا ، وهو البطالة ، وما ينجر عنها من مذلة السؤال والتداين. وما إلى هذه الامور التي يدفع اليها العوز والإحتياج . ولقد يصدق على أمثال هؤلاء المترفعين في أنفة شكلية قول المثل : "يهْرُبْ مِنْ تَحْتْ القَطّارَةْ، يجِيء مِنْ تَحْتْ المِيزَابْ" أو بلغة أخرى يترفعون عن المَبخوس فتؤول بهم الحال الى ما هو أبخس قيمة . ولعمري في قول القائل : "اخْدِمْ بِدَانِقْ وَحَاسِبْ البَطَّالْ" تشريفا للعمل والعاملين. وتحقيرا للبطالة أيا كان سببها — وكذلك قول التونسي : "خِدْمَةَ النّهَارْ مَا فِيهَا عَارْ" يمجد في نظر أطفالنا وشبابنا معنى العمل والشغل على الإطلاق، ويورث لهم معتقدا حيا . يرى في السكون جمودا، وفي الحركة بركة وفي الاثر الشعبي: "الحَرْكَةْ بَرْكَةْ".

هذه أمثلة مما تسببه بعض من تقاليدنا من عرقلة لسير الحياة في اتجاهها القويم الرشيد. ولئن سلمنا عن اقتناع بأهمية دور التقاليد في مهمة الحفاظ على كيان الامم. وفي مهمة السهر على ذاتيتها من التلاشي والإضمحلال . وفي الذود عن مقومات الوجود والحياة الكريمة. فان هذا كله لا يجعلنا نغض من أبصارنا ازاء ما يسببه شقص عقيم منها، من اعاقة للتقدم وعرقلة للجهود الرامية الى العيش الكريم السعيد — وان قولة جان جاك روسو في مضمار نقد الآخذين بالعادات والاعراف الوبيئة. خير ما ينبغي التذكير به. لانها جاءت عن نفسية منفعلة. دفعها التطرف الإنفعالي إلى انكار جدوى العادة على الإطلاق ، وما ذلك الا لان الناس بالغوا في تمجيدها بدون احتراز . ولانه رأى من آثار الاخذ بها، بغير احتراز، الأوبئة والانحراف. فكل ذلك وما إليه جعله يقول : "خير عادة الا تتكون للمرء عادة" — مدعيا بأن خير العادات هي ألا نتعود على شيء وفي هذا ايمان ضمني ومشط بضرورة التحرر من ربقة التبعية التقايدية ، مبالغ في الإفصاح عنه والدعوة اليه .

بين الكسب والاكتساب

من الآثار الحكمية التقليدية ما يملي على المربي التونسي ايمانه المطلق بتأثير الوراثة وبغلبة نفوذها على مصير شخصية الطفل. ففي قول الاثر :

"كَسْكَسْلُه يَرْجَعْ لَصْلُه" ما يزكي الإعتقاد بتوارث السلوك بين الاباء والابناء، وترجيح لكفة الإستعدادات الموروثة على العوامل التربوية المؤثرة في حياة الفرد – فالرجوع إلى الاصول، والتبدي بمظهرهم. والاخذ عنهم في السلوك أمر قضت به الوراثة ولا مجال للتملص والإنفلات منه – ومن هذا القبيل قول البدوي في أريافنا : « الصَّيدْ يجِيبْ المعَبِّس. والضَّبْع يجِيبْ الهَبِيلْ، والطَّيرْ يجِيبْ المقَرْنَس، والحَنَش يجِيبْ الطَّوِيـل" مشيرا بذلك الى أن ما بالاباء لابد من توفره في الابناء على غرار ما هو ملاحظ عند الفصائل الحيوانية. من انحدار صفات الوالد للمولود سواء منها الصفات المادية أو المميزات السلوكية – ومما يداني هذا الاثر قولهم : "ولد الفَارْ يَطْلَعْ حَفَّار" من حيث التحزب للتأثير الوارثي في مشكلة السلوك. ففي هذا المثل الدارج ما يشير الى ترجيح الإيمان بالعطاء الوارثي على ما سواه، ومثله قول القائل: "اللِّي أصْلُه طَيِّبْ يَأتِي بِالمَعْرُوفْ". فالمعروف يتأتى لزوما ممن كان أصله طيبا لان هذا لايمكنه فعل اى شيء غير المعروف، فهوكما لو كان أسيرا لاستعداده المورث له من قبل أصوله. وعند هذا المعتقد الحكمة القائلة : "ثُلْثِينْ مِن الخَالْ وَارِثْ"، فهي تشير إلى أن ابن الاخت يشبه خاله في ثلثي مميزاته وملامحه الجسمية أو المعنوية. فكل هذه الامثال السابقة كما رأينا، تتجه باتجاه مبدئي واحد إزاء مشكلة السلوك، وكلها تتمذهب بمناصرة الوراثة على البيئة وتقول: بغلبة نفوذ الإستعداد الموروث، على ما يزاحمه من بقية العوامل التربوية الاخرى، ذات التأثير الذي لا يجحد في حياة الطفل. ولعلها جميعا تنتهي فيما تشير اليه، عند حقيقة المثل القائل "الاصْل يغْلِبْ الرّبَايَة" .

هذه وجهة عقائدية تربوية واضحة الملامح في تفكيرنا الحكمي الشعبي يقابلها – من جهة أخرى – اتجاه مبدئي يعاكسها ويعارضها معارضة صريحة. فكما أننا وقفنا على أمثال عامية تتحزب وتتحيز للوراثة. كذلك انتهينا الى عدد هائل من الحكم الدارجة يزكى العوامل البيئية، ويراها تفضل التأثير الوارثي في جدلية السلوك بين الإرث والوسط. فمن هذا النوع الاخير قولهم : "مَا يَطْلَعْ لِبُوه كَانْ الفَكْرُونْ" حيث التعبير الصريح عن الحسرة الحازة في نفوس الاباء، من أن أبناءهم لم يأتوا على شبه بهم في

السجايا والشيم. وهنا نجد اقرارا يؤكد بطلان الإعتقاد الفاشي والقائل بتوريث صفات الاصول للفروع ، إذ هذا النوع من التوريث. لا يكون الا بين الحيوانات الدنيا أمثال السلحفاة، أما الإنسان فلا يكون خانه كسلفه — ومعنى هذا على التحديد — ايمان صاحب هذا المثل بانتفاء حكم الوراثة وبالتالي قيام لنفوذ البيئة والوسط على سلوك الفرد وطباعه. ثم في قولهن : "ولْدكْ عَلَى مَا تَرَبِّيه. وَرَاجِلكْ عَلَى مَا تَسَنْسْه" اشارة إلى مدى فعالية التأثير البيئي التربوي على حياة الفرد. وفي ذلك تلويح ضمني لضعف أثر الجبلة الموروثة على السلوك.

هذا ومن الامثال الحكمية ما يملي الإعتقاد بالتوريث العكسي ان صح هذا التعبير. بحيث يكون كمال الاصول على حساب ضعف الفروع. فلا توريث لصفات الاباء وانما لما يقابلها . ففي قول المتحسر على حال ابنه : "النَّارْ تَخَلَّفْ الرّماد" ادعاء بتمخض الضعف عن القوة، التدهور عن التوازن، الإضطراب عن الإستقامة حتى ان الإبن ليأتي على النقيض مما عرف به أبوه . ويفسر ضعفه بقوة أبيه إذ لا يعقب النار الا الرماد — ففي هذا الإدعاء دحض لما ينادي به الوراثيون، ونفي لصحة تفسير السلوك بالعامل الوارثي على الصورة الطردية. ويثبتها على النحو العكسي — ثم هذا المثل القائل : "كُبْ البُرْمَةْ عَلَى فُمّهَا، اللِّي فِي الطّفْلَةْ فِي أمّهَا" يحتمل في تفسيره وجهان اثنان: اما أن يكون تشابه الام مع ابنتها مفسرا بصلات الدم وبالعلاقة البيولوجية الرابطة بينهما. أو إن مرجع ذلك الإتحاد في المميزات التاثير البيئي. اذ من المقطوع به أن البنت تلازم أمها منذ فجر الحياة باعتبارها الحاضن الطبيعي وحسبما هو المألوف والعادة، ولا غرو أن يكون التشابه الملحوظ مرجعه الإحتكاك المستمر ليس غير. وانه لمحتمل جدا أن ينجم عن هذا الإحتكاك الموصول، وعما يستلزمه هذا الإتصال المستمر من ايحاءات وتوجيهات تؤول الى تشابه البنات بالامهات. وإنه لحتمي وقوع ذلك التشابه. نظرا لنزعة البنات الجبلية لتقليد امهاتهن. باعتبارهن مثلا عليا في الشيم والبوادر وحتى في الخلجات الوجدانية في بعض الاحايين.

ومثل هذا التأويل الثنائي الذي خرج عليه هذا المثل العامي يتبع في

فهم قول التونسي: "منين هاك العريف؟ قال له من هاك الشجرة" وقوله: "الولد نسخة من بوه" وقوله: "إذا عجبك ولِيد أخطب أخته". اذ ما من شك أن تشابه أعراف الشجرة يمكن أن يفسر باتحادالمناخ والبيئة المؤثرة فيها جميعا. أو باتحادها في الاصل من حيث تأتيها عن نواة واحدة. كما أن الولد هو نسخة من أبيه إما لانه انحدر عنه بيولوجيا. أو لانه يحيا معه كعامل من العوامل البيئة المؤثرة في تكوينه — وفي خصوص تشابه الإخوة بالاخوات هو الآخر مرجعه إما الوارثة الواحدة أو الوسط البيئي المشترك — ومن هنا تكون هذه الامثال غير محددة الموقف إزاء مشكلة السلوك.لانه يمكن حملها على مناصرة البيئة كما يمكن حملها على التشيع لعامل الوراثة.

وبالإجمال تتويجا لكل ما تم عرضه من أمثال مختلفة ذات اتجاه بين تارة. غامض أخرى. نستطيع القول بأن المنطق التقليدي ازاء قضية السلوك غير موحد في الإتجاه. شق منه الى الوراثة وشق آخر منه مع الوسط والبيئة. والناقد بوقوفه على هذا التعارض. ربما رمى الحكمة التقليدية التونسية بالتناقض والفوضى. والواقع أنه لو أمعن في الدرس وتريث كثيرا في الموازنة والتقدير. لانتهى به الامر الى الاعتقاد بسداد تلك الحكم المذكورة جميعا. ذلك أن هذه الحكم ليست هي بتقريرية مطلقة. بل هي في جملتها تعتبر عناوينا تلخيصية لتجارب وحالات مختلفة. ففي بعض من تلك التجارب. وقف الاديب الشعبي على حالات كان فيها أثر الوراثة أوضحا. وأوضحا مما سواه فرجح آنذاك الإعتداد بجانب الوراثة في تفسير السلوك. وفي بعض من الخبرات الاخرى انتهى الى ترجيح أثر التربية على ما سواه فقال بأوحدية تفسيرها للسلوك — ومن هنا أصبحت تلك الامثال في عمومها غير متناقضة مع واقع الاشياء وإن هي بدت متناقضة مع بعضها بعضا.

النزعة الاستقلالية

أبنا حتى الآن كيف أن من بين الآثار الحكمية الشعبية في بلادنا. ما أمكن الإستناد اليه في اعتبار تربيتنا على أنها ذات طبيعة تقليدية.

وتقليدية جامدة في بعض الاحايين؛ بيد أننا نكون على حق ان نحن ذهبنا على ملحظ آخر — الى أن بتربيتنا العائلية الشعبية اتجاهات تقدمية متطورة تتماشى وبعض النحل التربوية الحديثة في دعوتها وتمجيدها للتربية الإستقلالية . ذلك لاننا وقفنا على جانب هام من الامثال الدارجة تملي على المربي الوثوق بالطفل وبامكانياته. وتملي أشعار الطفل بهذا الوثوق وبهذا الإعتداد به. وبامكانياته — فمن ذلك قول الوالد التونسي لولده : "عينك ميزانك" في المواقف التي يتأبى فيها هذا الوالد عن الظهور بمظهر المحكر للاشياء . والمقيم للامور في مجال حياة ابنه . فهو بقوله ذلك يستنكف من مهمة التحسين والتقبيح التقليديين . فلا هو يأمر الطفل بما يراه حسنا. كما لا ينهاه عما يراه قبيحا من التصرفات والبوادر. بل هو يريد من ابنه اكتشاف القبيح بنفسه. للابتعاد عنه عن رأى وتصميم ذاتيين. ويريد منه أيضا تحسس الحسن والجمال فيما يحتمل القيام به من أعمال وتصرفات. ليقبل عليه الطفل في حمية المنفعل بجمال الفعل. وفي استصواب المؤمنين بأفضليته على غيره — فهذا الوالد حينئذ بتوجيهه الحكمي ذلك. يوكل للطفل ذاته مسؤولية الحكم والتصرف. فلا تحديد لما يجب فعله. ولا املاء من عل أو من الخارج للنزوع والتصرف. بل في موقفه ذلك تجد حصانة وضمانا لتلقائية الطفل التي بها تكون الشخصية الإنسانية أو لا تكون...

ويتلاقى مثل هذا الوالد المنتصح الناصح بالاثر الشعبي السابق. مع والد اخر هاله روح الإتكال وانعدام روح المبادءة من ابنه. فحوقل في وجهه قائلا : "اللّي تْوَصّيه لاَ خير فيه". ذلك أن المفتقر حقا لنصيحة غيره وتوجيهاته الى الحد الذي لايقوى فيه على اتيان أي بادرة بدون أخذ المشورة. هو بلا منازع فاقد للنضج الذاتي. وليس هو بحق على أي خير يذكر. ومثل هذا النفر ليس هو على امكانيات شخصية تخول له الحكم والتصرف الحر. وبالتالي فهو على الدوام اعتمادي الموقف، يستمد دواما حكمه على الاشياء وعزمته على الفعل. لا من ذاته التي بين جنبيه. بل من ذوات المحيطين به. وظاهر في في هذا الإتكال انعدام النضج في الشخصية. لان الشخصية الناضجة والمتكاملة.

هي التي آل بها نموها السوي، ومكنها وسطها التربوي من مظاهر الإستقلال بفكه عنها ايسار التبعية والاعتماد الطفليين – ولقد يحالف التوفيق بعض الآباء العاديين عند ائتمارهم بنصح المثل العامي القائل : "اللي عينيه فيه ما تورّيه". اذ ما من شك ان المعتقد الذي انبنت عليه هذه النصيحة وجيه ووجيه الى ابعد حد – فالقاء المسؤوليات على اطفالنا وأحرى على شبابنا. ومحاولة تعويدهم على تحملها منذ فجر الحياة. لمن الإجراءات والمواقف السديدة تربويا. وانه لمن الخطل الفادح أن نخاف على الطفل. وأن نكون أسارى الإرتياب فيه، وفي امكانياته على الدوام. ففي هذا عرقلة لنموه ولتقدم نضجه . ثم على فرض عدم اقتدار الطفل وقصوره الواضح في نظر وليه. فان وسيلة الخروج به من هذا الضعف تتمثل في بعث وحث تلقائية هذا الطفل للتجربة والمحاولات في غير ما تردد أو خوف من الفشل. هذا الى أن الفشل والشعور به من الطفل مظنة شحذ الهمة ومعاودة الكرة. فكثيرا ما يجدد الطفل طاقته ويزداد عنادا بارتطامه مع العقبات. وهكذا قد يفيد الفشل بتغذيته إصرار الطفل على النجاح. ومن هنا لاخوف على الاطفال من الفشل، ولاهم عنه بعيدون احطناهم نحن بحراسة ورعاية موسوسة أم لا... ولعل الاهم في اتيان الطفل البوادر التي تنال رضانا أن يكون هذا الطفل مقبلا عليها فاعلا لها عن رضى واعجاب باطنيين – وهو عين ما قصد إليه هذا المثل الدارج، فهو – كما هو بين – يوعز الينا بأن نجعل الطفل، موقف الائتمار بارائه وذوقه الخاص .

حـــريــة الطفـــل

ومتى كنا بحق طامحين الى تقوية الملاحظة عند الاطفال. والى توفير ظروف انسجام ميولهم مع الواقع، فليكن منا الإقبال في جرأة وشجاعة على رفع تلك الكفالة المميتة للعقول، والمخدرة لفعاليات النمو الطبيعي. هذا وإذا كان من الضروري توجيه الطفل باسم التربية فلماذا لا يكون ذلك بطريقة لا تنمحي معها ذاتية الطفل وفعاليته المنبثقة من أعماقه. وبهذا المعنى يكون الاباء الذين يحتجون على أبنائهم لتصرفهم بدون أخذ المشورة. على خطا جسيم، اذ هم في واقع الامر يريدون بذلك الإحتجاج، الوقوف أمام سجايا أبنائهم التائقة الى الحرية بالجبلة . وهكذا يكون السقم في الإتجاه

التربوي المتمثل في قول الوالد لولده: "آشْ كُونْ قَالْ لِكْ افْعَلْ هَذَا" وكذلك في قوله له : "أنَا مُوشْ قُلْتْ لِكْ مَا تَفْعَلْ شَيْءْ إلاَّ ما تْشَاوِرْنِي" فمع الايمان التام بأن في الإستشارة، أمن من الزلل والندامة بالتالي. فالضرورة تحتم تهيئة الظروف التربوية المواتية لبلوغ الطفل توازنه الداخلي. ونموه الاتم، وهذا بالطبع لا يتم الا باعطائنا اياه الثقة. وباحاطتنا اياه بجو مطمئن هادىء، يمكنه من التفكير والتروي والنزوع بمليات ما افتعل في نفسه ذاتها ـ ذلك لان ثقة الطفل بنفسه يستمدها من ثقتنا نحن به. واعتداده وروح الإعتداد ببوادره. يستوحيها من اعتدادنا نحن به وببوادره. ولما عادت هذه الثقة بالنفس أهم مقوم في بناء شخصية الطفل فان الوجاهة النظرية لموقف الإستشارة لا تطمس معالم هذه الحقيقة الهامة الواجب مراعاتها في تربية أبنائها ـ ولكم كان صائبا قول القائل لإبنه : "النَّفْسْ نَفْسِكْ وَأنْتَ طْبِيبْهَا" اذ هو يحمل الطفل على الإعتقاد بأن شخصه عالم مستقل بذاته، اذا انحرف منه شق. فله من نفسه التطبيب والدواء الناجع. وليس عليه أن يبحث عن العلاج عند غيره من الناس، ففي هذا مبلغ الإعتراف بمبدا تربوي مكين. ويتساوى هذا المثل مع آخر. من حيث الحض على تربية الطفل تربية استقلالية. ففي قول الوالد لإبنه "مِنْقَارِكْ لا يِنْفْعِكْ زَي" عندما يطالب هذا الإبن أباه بما كان المفروض فيه السعي لايجاده لنفسه بكد يمينه وبعرق جبينه. ويذكرنا نص هذه الحكمة بلغة "كليلة ودمنة" من حيث أن بنيتها جاءت وصفا لحياة فصلية الحمام ـ فالحمام كما هومعلوم يقيت أبناءه مدة قصيرة من الزمن. الا أنه لا يستمر في تجشم اتعاب هذه الحضانة إلى ما لا نهاية. بل إلى أمد معين. وعندما يرى سليله أصبح قادرا على القيام بأوده وحده، وهم إليه يطلبه القوت قال له : "مِنْقَارِكْ لاَ يِنْفْعِكْ زَيْ» أي لا ينفعك الصراخ والاستغاثة في طلب النجدة.

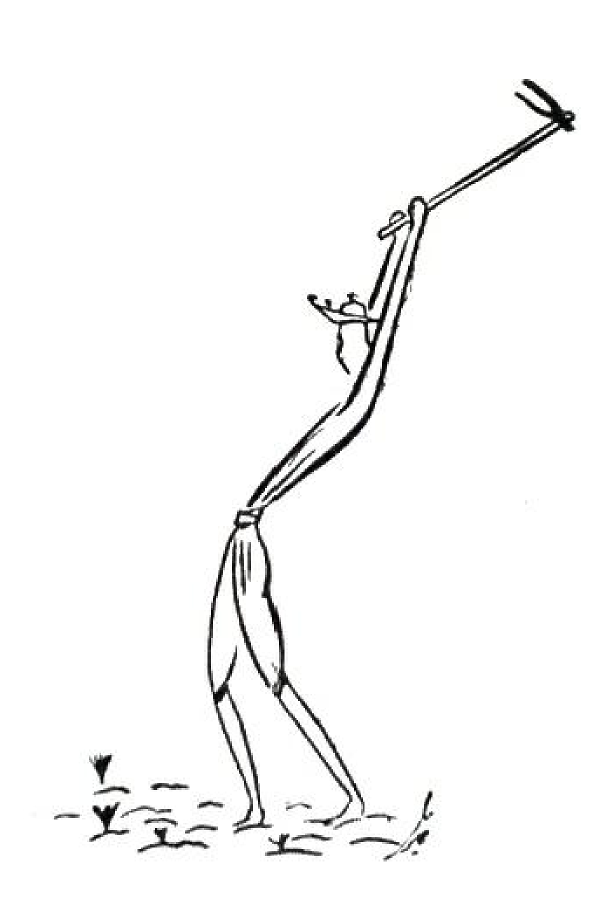
ثم من هذا القبيل وقفنا على مثل شعبي يناهض روح الإعتماد. ويشجع على الإستقلال، ويناوىء الإتكال والإستناد على الغير بمختلف صوره وأشكاله ذلك فيما يورده الاب لإبنه عندما يريد به التعويل على نفسه ومقدراتها ليس غير، فهو قد يتمثل أمامه بقول القائل : "مَا يِحُكْ لِكْ، كَانْ

ظَفْرِكْ. وَمَا يَبْكِي لِكْ كَانْ شَفْرِكْ". وان الصلة واضحة بين هذا المثل التونسي الشعبي والمثل العربي القائل : "ما حك جلدك مثل ظفرك" ولعل هذا هو الذي أملى على الحكيم التونسي ذاك. إن لم تكن التجربة هي التي أوحت بها للحكيمين العربيين : القديم والاقدم..

وبالجملة فان السداد والتوفيق يكونان بتربية الطفل على هذا الإتجاه القاضي بالقائنا المسؤولية كاملة. على كاهل الطفل نفسه. ازاء ما قد يأتيه من تصرفات. ففي هذا الموقف إتاحة الفرصة السانحة لاعمال العقل والتروي. فهو إن جعلناه على هذه المسؤولية سوف يقايس ويوازن بين الاشياء والاحداث، ولسوف يقارن بين الإحتمالات. فيميز بين الممكنة وغير الممكنة منها، ولسوف يفاضل ايضا بين الحلول المختلفة ازاء ما قد يعترضه من مشاكل ومعضلات. فيتخير عن بصيرة ما سيواجه به واقعه مواجهة جريئة وثابتة – وهكذا يصبح الطفل والحالة هذه مربيا نفسه بنفسه. نتيجة اعطائنا لقابلياته فرصة للافتعال والنمو. ونتيجة تمكيننا لاستعداداته المتحفزة بما جعلها تتقوى، فتقوم بوظائفها على وجهها الامثل. وإذا كان بالتراث الحكمي المربي ما يوصي الاباء بمثل هذه النزعة التربوية، فانه لاجناح علينا إن نحن نعتنا تربيتنا العائلية، الآخذة بناموس تلك الآثار. بانها تربية استقلالية في جانب من جوانبها. ولعمري إن في قول التونسي لإبنته مثلا : "قِيسْ قَبَلْ مَا تِغِيصْ" نضجا متينا يدل على سداد في النظرة التربوية. اذ هذا الوالد لم يكن محددا لابنته أماكن الغوص والإحجام، ولم يكن أبدا ملقنا اياها ما يراه لها مفيدا، بل على العكس من ذلك تماما، فهو يريد بها الإعتماد على تجاربها الخاصة. والاخذ بتقديرتها الشخصية في الحكم على الاشياء ولها. وانه لواضح في تمذهب هذا الوالد بهذه الحكمة المربية. مدى الإعتداد بقياس ومقاييس ابنته، وانه كذلك لعلى وثوق أمكن بتحكيرها واستنتاجها. وهو في هذا الموقف لم يكن ليعطيها حرية القياس والتقدير فقط، بل هو يحثها على الإهتداء بمعاييرها الذاتية في الحياة، بحيث لم يردها الا متصرفة

بتصرفاتها التي تستوحيها من ذاتها التي بين جنبيها —

وحينئذ لما كانت الحكمة التقليدية توصى كما تقدم بماهو تقدمي، وبمامن شأنه أن يملي الإستقلال والحرية في الرأي، فليس في تلك الحكمة، والحالة هذه، أي معنى من معاني التقليد، ويصبح وصفها بالتقليد باعتبار جوانب النضج فيها، من باب التجوز في اطلاق كلمة التقليد على كل ما هو تليد ليس غير.



« إِخْدِمْ بِدَانِقْ وِحَاسِبْ البَطَّالْ »

في التربية الدينية

للامثال العامية جوانب عديدة يمكن لنا منها درسها وبحثها. وحتى من الوجهة التربوية الصرفة فان الزوايا التي منها يمكن نقدها، لكثيرة وكثيرة جدا. وبما أننا بصدد التحدث عن تلك الامثال في صلتها بالمواقف التربوية العائلية، فلعله من الاوفق ان نتحدد دائما بهذه الصلة في طبيعتها الموحية للاباء والابناء، بقيم وبمواقف منها الصالح المجدي، ومنها الطالح الرديء. وانه لمن الخطل ان نستند الى مثل عامي واحد، أو الى امثال عديدة، عرفت في منطقة جغرافية محددة، فنحكم على عموم تربيتنا أولها. دونما احتراز من اخطاء التعميم. ومن هنا ففي كل ما ألحقته بتربيتنا العائلية من صفات سابقا ولا حقا، اعتمدت فيه نصوصا حكمية توسمت فيها التأثير على عملية التربية في نفس الاوساط التي سمعت وترددت فيها تلك الحكم. ولا غرو ان كانت نفس هذه الحكم غير معروفة، ولا مستعملة بجهات أخرى من بلادنا وبهذا الإعتبار يصبح كل وصف ألصقناه بتربيتنا، إنما هو رهين تأثرها بنفس الامثال العامية التي منها استوحينا الاحكام والاوصاف التي ذهبت الى تمييز تربيتنا بها. وبناء على هذا فنحن عندما نقول مثلا برجعية تربيتنا أو بتقدميتها فاننا لا نعني تربية أهل الحضر، ولا أهل الارياف بالجمهورية التونسية، وإنما قصدنا بذلك، التربية التي تهتدي وتتوجه بما استشهدت به. من أمثال اتخذتها ركازا للحكم والتقدير، ومستنداً للتحليل والنقد.

وهناك حقيقة أخرى، الى جانب هذا الملحظ المنهجي. وهي أن خطر الامثال الدارجة على تربيتنا يتمثل، زيادة على ماسلفنا ذكره في الفصول السابقة، في ازدواج تأثيرها على كل من الاباء والابناء. هذا من جهة، ومن أخرى، في غموض المحتوى وبالتالي تأتي التاويل المتعددة والممليات المتكاثرة — وانك لعلى حق ان انت ذهبت الى اعتبار هذه الحكمة التقليدية سلاحا ذا حدين، ذلك لانها قد تنطوي تارة على بعض من الابنية الفكرية

السليمة، والصادقة الدلالة على واقع الاشياء، كما أنها تارة اخرى، قد تتضمن بعض القضايا الخاطئة خطئا مطلقا، أو نسبيا للزمان والمكان، وللظروف الحياتية. ومن هنا يخطىء الاباء، في تمنطقهم العتيد بدستور الحكم الدارجة عند تربيتهم أبناءهم، اذ هم قد يصادفون اهدافهم التربوية، كما قد يجانبونها.

النظـرة الجبـريـة

هذا وكثيرا ما يكون فساد الموقف التربوي لا ناجما عن الاخذ بالمثل العامي، بل عن تاويله وسوء فهمه، وبالتالي أخذه على غير محمله، واستعماله في غير المواقف الملائمة، أو على غير وجهه اللائق... وفي هذا ما يجعلنا نعتقد بأن المثل العامي قُلَّبُ في قيمته واثره التربوي، اذ كثيرا ما يكون ضعف نتائجه التربوية ناجما، عن نقص امكانيات المربي نفسه، ذلك النقص الذي لم يكن فيه صاحبه متفهما لحقيقة المثل، ومدلوله وظروف انطباقه والعمل به. فمن هذا القبيل فهم العامي أحيانا، أن المسلم الحق مسير في كل شيء، وان كسبه عطاء لدني لا يستطيع بحال من الاحوال تبديله ولاتغييره مهما بذل في ذلك من جهود جبارة. ولعله يفهم قول الحكيم الشعبي : "المربِّي مِنْ عِنْدْ رَبِّي" و"الهِدَايَةْ هَدَايَةْ رَبِّي". على أن المَعْنِي بهما القعود عن المحاولات الرامية الى تكوين العواطف الفاضلة والميول النافعة. وينجم عن هذا الفهم الخاطىء القاء الحبل على الغارب، وترك الطفل فيما هو فيه من اتجاه مضلل وحياة متنكبة.. وفي مثل هذا التخريج الخاطىء للمثلين السابقين، خطر الإهتداء بما لم يكن مقصودا بهما، وخطر تأثر الطفل بحقائق خاطئة ومواقف تربوية خاطئة —

انه لحري بهذا الوالد أن يفهم هذين الاثرين الحكميين على الوجه السديد المجدي، ذلك أن الله تعالى علة العلل، العلة القصوى، العلة الماورائية كما تذهب إلى ذلك الفلسفة، ومتى نحن فسرنا بارادته العلية كل شيء، فلا يعني هذا القول شلل ارادتناوانمحائها كلية، كأن لم تكن إرادة الإنسان مستمدة من إرادة خالقه .. إذ الصواب أن يعتقد المرء بأن الله كثيرا ما جعل إرادته نتيجة لارادة عبده. وهذا الحمل في التعليل نستوحيه من الحقيقية القرءانية التي تعلن «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»

ومن تلك التي تروى عن الباري في قوله عليه السلام : "أنا عند ظن عبدي بي". فالإرادة الإنسانية ليست هي في جوهرها قسيمة لارادة الله . لان هذا الإنسان بكل ما هو عليه من امكانيات ما كان ليكون لولا إرادة خالقه . وبالتالي فالإرادة الإنسانية هي امتداد لارادة ذلك الخالق العلي . ولا شك عندي أن أبا القاسم الشابي قد أشار الى هذا الملحظ عند قوله :

إذا الشعب يوما أراد الحياة

فلا بد أن يستجيب القدر

فهو يذهب بقوله هذا الى أن ارادة الامة مستوحاة من ارادة الله ولهذا فهي لاترد. وطبيعي أن يكون أولائك الذين قالوا بكفر شاعرنا وزندقته على موقف عقلي يرون فيه إرادة الإنسان. مقابلة لإرادة المولى جل جلاله. وإنهم بتكفيره تعاموا عن قوله تعالى : "وما تشاؤون الا أن يشاء الله". وفي ذلك الكفر المحقق. لان تكفير المسلم كفران وفي الاثر " اذا قال الرجل لاخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما ". ولبئس مثال المتعصبين في غير وعي للدين . وذلك جزاء من يقفون في وجه انتشار دعوته على غير هدى ولا كتاب مبين. ويسعون على عرقلة رسالته السامية من حيث لا يشعرون.

هذا مع الإلماح الى أن الحكم الدارجة ضمت اتجاها عقائديا دينيا أن تم على شيء. فعلى أصالة التدين وعمق وتكامل العقيدة. فمن هذه الاثار الدالة على نضج الوجدان الديني قول التونسي : "لا تهتم اللي في علم الله يتم" فعلى الرغم من أصالة النظرة الصوفية التي نلمحها في قائل هذه الجملة. فاننا نخشى ونتوجس خيفة من أثر هذا المثل الدارج ان هو فهم على ظاهره. فالمعقول الذي يحمل عليه نص هذه الحكمة. ليس هو عدم الإهتمام والإستسلام في غير سعي للغد ولقضاياه المنتظرة والمأمولة. وإنما هو يعني ويشير الى أن سعينا. ونجاحنا او اخفاقنا فيه. مرجعه النهائي التقدير الازلي والإرادة العلية . أما قبل حدوث الاحداث وانجاز الاعمال. فلا بد من الاهتمام والعمل باعتبارهما من المقدمات الضرورية للحصول على المرجو من المطامح. وإن قلت بضرورة العمل، مع التوكل. وبلزوم السعي مع الإعتماد

والاعتقاد في الله وفي عليته المطلقة لكل شيء ففي ذلك التوفيق بين الحقين : الديني والدنيوي —

وإن طفلا على غير هذا الفهم الصائب لمثل تلك الحكم المعالجة لنظرة العقائدية. سوف تؤول به الحال الى التواكل والى مصير. يفقد فيه الحياة الحق والحيوية الحق. وفي هذا اعضل الداء وعاة الآفات صغيرها وكبيرها. ومما يكثر التمثل به من الامثال الماسة بالجانب العقائدي الديني قولهم : "الفَقْر والغِنَى بيد رَبِّي". ففي هذا الاثر افصاح عن حقيقة دينية صائبة. الا أن الإعتقاد المؤدي الى سلبية المرء. في معركة الوجود لا يعنيه النص. ولا يقره الدين والعقل معا. وانا لنجد زمرة هائلةالعدد من أشباه هذا المثل العامي. فمن ذلك قولهم : "الـرِّزْقْ بيد رَبِّي" في ادعاء توزع الارباح على نحو. لا دخل لإرادة الإنسان فيه. وقولهم : "رِزْقْ حَدْ مَا ينكه حَدْ" عند الخشية من مزاحمة المنافسين. فبدلا من أن يزداد المرء اتقاد عزيمة واستعار حمية في معركة النضال والزحام، تهب الى ذهنه هذه الحكمة فينكص على أعقابه آمنا، في موقف سلبي مشين. اعتقادا في أن الرزق عطاء، مجهولة أسبابه ومعاييره. وأن لا لزوم من اجهاد النفس. لأن ذلك لا يجدي فتيلا — وكذلكالامر نسبيا لقول القائل : "اللِّي لِيكْ لِيكْ، واللي خَاطِيكْ خَاطِيكْ" ونسبيا لقولهم : "مَا خَلَقْ الاشْدَاق إلا مَا قَدْرِلْهَا الارْزَاقْ". وحتى في قول القائل : "القَسَم مِنْ عِنْدْ رَبِّي" "ومَا تَأكل إلا مَا يِكْتِبْ لِكْ وَمَا تَكْسِبْ إلاما يَعْطِيكْ" خطر مماثل لما كنا نشير اليه من احتمال حمل هذه الآثار الحكمية الصائبة. على غير محملها من فهمها على نحو يملي التواكل ويورث القعود عن السعي.

وان جميع هذه الامثال المفصحة عن المعتقد اللائذ الى قوة الله وإرادته. يفسر بهما كلا من مظاهر الرحمة والنقمة، لتنم عن الوجدان الديني الناضج، ولكن مثل هذه الاثار الحكمية ان هي فسرت على نحويجافي الاصول العقائدية للدين الحنيف، فان خطرها وخطر التمثل بها سواء في تربية الطفل، أو حتى في التعامل مع الناس على أساسها عموما، ليعد من أعوص المشكلات التي ينبغي اجتثاثها باعتبار أن تلك الامثال، وإن هي

تضمنت حقيقة ثابتة ، الا أنها حرفت فاصبحت كما يقال في أمثالها : كلمات حق اريد بها باطل .

الحتميــة التــربــويــة

هذا وليست الحكمة التقليدية عل هذا الموقف دائما في تفسير الظواهر والاحداث بالماورائيات ، وليست هي كذلك شالة لارادة الفرد . لاغية لقيمة جهوده في معركة النضال من أجل الحياة. فلكم يعترضك من الامثال العامية ما كان على ايمان بحتمية الاحداث وبسببية السلوك بما في ذلك تربية الطفل. فتقول التونسي : "اللِّي تَعْمْلْ تَلْقى" يدين بالاسباب المباشرة لحدوث الاحداث والنتائج . فما يلقاه المرء هو نتيجة حتمية لعمله هو . وفي قول الناس : "اللِّي مَا شَقَى مَا لْقَى" ما يفصح عن نفس المعتقد الوضعي الذي طالعنا في المثل السابق. وانك لتعجب معي بقولهم : "كلّ شَيْء بحسَابه" لانك واجد به اعتدادا بالعقل وبصحة فرضياته وتقديراته، ثم فيما يقوله الوالد لابنه عند حثه إياه على الدراسة والطلب لمن أروع الحكم الدالة على حتمية الاحداث في نظره ، وعلى تسببها عن بعضها بعضا في شيء من اللزوم الذي لا يتخلف ـ فهو قد يقول له في موقف الشحذ للهمة " اللِّي يحِبْ العَلاَلِي يبِيعْ النُّومْ الغَالي" قاصدا بهذا. غرس روح الإعتقاد والإعتداد بالنفس ومعاني الوثوق بالإرادة الإنسانية. وكثيرا ما يقول نفس هذا الوالد لابنائه : اللي مَا زَرَعْ مَا حَصَدَ ". مجسما بذلك حقيقة يريدها لهم قبل سواها، لانها في عداد أوكد ما ينبغي التسلح به من أجل شق الطريق في الحياة. ولكم يجمل بنا أن نتوج هذا السرد لمثل هذه الحكم المتعارضة من حيث المعتقد الذي تصدر عنه، او حتى من حيث التناويل التي تتصرف منها ويحملها عليها المستشهدون بها، قلت كم يجمل بنا أن نتوج كل ذلك بذكر مثل عامي. به النتيجة التي سوف نخرج بها من كل ذلك النقاش الذي أوردناه حيال جبرية المعتقد التربوي وحتميته. هذا المثل هو ذلك الذي يقول : " أنْتَ علَيْك بالحرْكَة وأنَا علَيَا بالبرْكَة " رواية عن لسان الرب في لغة العوام وهو عين ما ينبغي ارتسامه ووضعه بين أعيننا

كآباء. لنطبع عليه ناشئتنا التي نريد لها ان تتدبر على ضوئه قضايا الحياة والدين في وضوح وعدم تناقض. سيما عندما تتشعب الامور لديه. وتختلط الاغراض والسبل عليه .

الاخـــلاق الـدينيـــة

سأل سائل : لماذا كان القساوسة أكثر نجاحا من رجال الدين عندنا في رسالاتهم الدينية: من تحبيبهم الدين للاطفال والشبان. الى نشر الخلق الديني بين عامة الناس وخاصتهم ؟!

قلت ليس كل رجالات الدين عندنا على فشل في تلك الرسالة. هذا إلى تفاوتهم في الإضطلاع بهذه المهمة كتفاوت رجالات الكنيسة أنفسهم في مدى التوفيق الذي أشرت اليه. وعندي مفسر جوهري لمثل هذا التفاوت الملحوظ بين رجال الدين الاسلامي. وغيرهم من حفظة الديانات الاخرى. وحتى بين رجال الدين الواحد أنفسهم. ذلك أن التضحية ومدى تفاوت الناس في مضمارها معد بالدرجة الاولى المعلل الوحيد. ان لم يكن الاوحد. لكل ما يلاحظ من فوارق بين الافراد والطائفات. في مدى نجاح واخفاق المهمة المناطة بعهدتهم. فعندما اجتهد العالم الديني بالتضحية الجسيمة فيما تقدم من عهود البعث الإسلامي. جاء التوفيق في رفع الوية العقيدة الإسلامية فوق قمة الكنائس. ولما تخاذل القوم آل الأمر بهم الى حب المتع والتعلق بالشهوات. فقعدت بهم الهمة عن ملاحقة الهدف الإنساني السامي. الذي كان المفروض فيهم التفاني في سبيله والتهالك على بلوغه. والتقدم بالنفس والنفيس من أجل الحصول عليه. ولك في حمل التضحية هذه على أي نوع من أنواع الحرمان المادي والادبي. اذ القدامى من أئمة الإسلام كانوا فيما مضى يضحون بالمتع المادية على اختلافها . والمتع الادبية الإجتماعية على اختلافها. من أجل نصرة كلمة الدين وقيمه الخالدة. في حين أصبح ورثتهم في مجموعهم. يضحون بتلك القيم الخالدة نفسها من أجل أغراض زائفة ومطامح باهتة. وأهداف أنانيـة جشعة.

ومضيا وراء تحليل هذا المعنى نذكر كيف أن رجل الدين في القديم. كانت حياته يغلب عليها الطابع الروحي المعنوي. من حيث الإنقطاع للمعرفة

الدينية وغير الدينية ، وللبحث فيها بكل تفان وتمحض . بينما رجل الدين فيما نشاهد عندنا على العموم، أضحى على حياة تغلب عليها المسحة المادية المتهافتة، على ملذات الحياة في شيء من الإغراق والنهم . وهكذا نتبين سبب نجاح القسيس في جلب الاطفال والشبان وحتى المثقفين من هؤلاء، لحضيرة الدين. وللمناسك الدينية. فهو قد وهب نفسه بكل جهودها. للتفاني من أجل هذا الغرض. الا وهو تربية الوجدان الديني في الناس. وتظهر مجهوداته على الخصوص في ميدان التثقف بكل ما من شأنه أن يساعده على بلوغ اربه من حمل الناس على عقيدته وعلى مناسكه الدينية. فقد تجد من القساوسة الطبيب والاستاذ المجاز. المهندس والمحامي. الكيماوي والرياضي. الى آخر قائمة المبرزين في شتى نواحي المعرفة الإنسانية. فكل ما يساعدهم على التربية الدينية لاحقوه وذللوا صعابه بالدرس والطلب. ليسايروا الحياة في اتجاهاتها فيفرضوا بالتالي على على تلك الحياة إرادتهم. ونواميس تلك الديانة التي قدموا أنفسهم ليكونوا شعارا لها وخدمة لها في نفس الوقت .

ثم هم على تواضع وعلى رياضة روحية كانت حقا. ميسما لاسلاف أهل المعرفة الدينية الإسلامية. فهم يتبعون كل الطرق التربوية المؤدية للتأثير على حياة الطفل الوجدانية. ولكم نلحظ تعلق أبناء المسيحيين بالقساوسة وكراهية أطفال المسلمين للمؤدبين «بالكتاب» — ولكم نلحظ ايضا كراهية الناس للائمة المتزمتين و القراء السذج، وما ذلك الا لان اولائك حذقوا فن تاليف القلوب واجتلابها لاشخاصهم وللديانة التي يعنونونها ، ولان هؤلاء فشلوا إن كثيرا فقليلا في الاخذ بالوسائل والطرق التربوية المؤدية الىالغاية المثلى المتمثلة في إرساء دعائم المعتقد الديني عند الشباب على النحو المكين الحصين — ولعمري لايقل حماس علماء ديننا، عن حماس غيرهم من رجال الديانات الاخرى. وانما كل ما في الامر، ان حماس علمائنا حماس قولي. بينما تجد حماس الآخرين حماسا نزوعيا دائبا، حماسا فعالا نشطا ينفعل بالحياة وتنفعل الحياة به في شيء من التجاوب والتكامل الاكملين — ولعلي لا أبالغ قط إن قلت إن الطفل والشاب المسيحيين كثيرا ما يأتيان الخلق الديني لا خشية من ربهما أو رغبة في

عطائه، وانما محبة لقسيسهما وطلبا لمرضاته عنهما، وتطلعا لدوام صلتهما به على النحو الموجب - واذا كانت قوة الربط بين العالم الديني وتلاميذه من هذا الإحكام . فلا غرو أن يتقمص الإنسان ربه وجدانيا . وأن تؤول به الحال الى العيش الفاضل دينيا . ذلك أن أولى خطوات محبة الله القدرة على المحبة. فمن الناس من لم يكونوا على قدرة للحب، ثم ان أولى خطوات اكتساب القدرة على المحبة وعلى التعلق الوجداني ، محبة الآخرين من ام وأب واخوة وقسيس . فمثلا من لم تنجح تربيته في مساعدته على محبة الغير، لا يقوى على محبة الخالق جل جلاله - وانك لتذهل حقا ان انت علمت أن من المواقف التربوية، ما يتسربل باسم الدين وما هو من الدين في شيء . بل يسبب للطفل تبرما مقيما ، او حنقا مستقرا بكيانه الداخلي . ومنها ما لا يوجه الاطفال الى محبة الناس او الخالق وانما يوجه لكراهية كل شيء حتى أنفسهم التي بين جنبيهم . ومن تلك المواقف التربوية المتدرعة باسم الدين ما أورث التعلق بنقيض ما كانت تحاول فرضه على الطفل من شيم أخلاقية دينية. كل هذا أدى ويؤدي اليه عدم الإعتراف بالوسائل الناضجة والطرق الناجعة في غرس بذور المعتقد الديني - ولئن قلت كيف توصل الاولون الى تكوين العقيدة والخلق الديني ؟ أبتعرفهم على طرق التربية الحديثة ؟ قلت لك : ان نجاحهم ان كان حقا كليا ، فليس يعني هذا اتباع ورثة رسالتهم في العصر الحديث . نفس طرقهم ومواقفهم الروحية النافذة - ثم التطور يقضي بالتجديد وبمسايرة كل جيل بما يلائمه من وسائل ، ونحن لانريد المس بالقيم وانما بالدولاب التربوي وبالطرق المتبعة في بناء الوجدان والاحساس الدينيين . فبدلا من اتباع طريقة الفرض الخارجي نتبع طريقة المؤانسة والتحبيب بالملاطفة ، وفي هذا ربما الرجوع الى الطرق التي كانت متبعة سابقا ، وذهل عنها المسؤولون لاحقا . تلك الطرق التي لحقها نوع من التطور على أيدي المعاصرين ونسبت لهم من باب نسبة الاشياء الى آخر المجددين والباعثين لها .

الضغط لا يجدي

وعلى سبيل المثال حدث أن اجتمع مجلس تأديبي معظم أفراده ، من

رجالات التربية الدينية، وكان ذلك منذ عشر سنين، عندما لوحظ على جمهرة من طلبة التعليم الديني الزيتوني، ذلك التدهور الخلقي المتمثل في خروجهم الى فناء المسجد عند اقامة الصلاة. فلقد كان الإتجاه العام لذلك المجلس ردعيا زجريا لولا يقظة أحد أفراده، ولا تخلو الجماعات من ذي فطنة، فقد اتجه هذا العضو اليقظ، الى أن بسلوك المتأبين عن الصلاة ممن خرج الى فناء المسجد، بذرة تدين أخشى ما نخشاه زوالها وحلول الزندقة عوضا عنها. ذلك ان خروج الطلبة الذين يدرسون الدين والاخلاق الدينية، على ما يرى، لا يفسر في الشائع إلا بمفسر واحد ألا وهو عدم التهيؤ للصلاة بالوضوء، ومن هنا فاننا لوحملنا الطلبة على أداء الفرض بالإجراءات الزجرية الردعية، فانه من المحتمل جداأن يزداد الطالب بعدا عن حضيرة الدين بوقوفه لدى الجلالة على غير طهارة. وهكذا بدلا من العمل للوصول بالتلميذ الى التدين الصحيح نعمل على ابعاده عنه. إذ بالزجر يصبح المرء غير محترم لله في احترامه للزواجر الناهية. وإن رأيا من هذا القبيل ليعد من المفاهيم الناضجة للخلق الديني والتربية الدينية. فالخلق الديني ليس هو مظهرا وسلوكا عيانيا، وان كان كذلك فهو يتضمن العادات الوجدانية أو العواطف الصادقة. ومن هنا لايهمنا في تربية الطفل تربية دينية، ان يأتي السلوك الديني بقدر ما يهمنا ايمانه بذلك السلوك وانطباقه على حاله الباطنية.

هذا وكم كانت التربية الإسلامية على نضج في الطرق المتبعة منها للاعداد الخلقي العاطفي. فهي توصي بتكليف الطفل، وبأمره أن يفعل الفعل الخلقي. وفي هذا السداد فلاتعلم للافعال الاخلاقية الا باتيانها وتكرار اتيانها، ومن هنا كانت حكمة حمل الطفل على الصلاة، قبل نضجه العقلي المخول له فهم رسومها، ومدلول آيات السور المشترطة في أدائها. فالصلاة التي هي من الاهمية التي يعلم الجميع، انما فرضت لتنهى عن المنكر والفحشاء. وما نهيها ذلك الا في ظل هذه الاعمال المكررة يوميا وفي اليوم الواحد خمس مرات. فهي بالنظر لملابستها حياة الفرد تذكي باستمرار الحاسة الخلقية الدينية، بما يجعل فرصة التاثر بالنواهي والاوامر سانحة. وفي ذلك التدين الاصيل – فالعاطفة الدينية هي كبقية العواطف الاخرى، معتبرة عادة

وجدانية، واذا كانت كذلك فلا يزيد العادة قوة مثل تكرار الفعل. ولا يضعف من مستواها مثل الترك، وهجران مزاولتها. وفي هذا المعنى فلسفة التشريع الإسلامي القاضي بكفران التاركين للصلاة إذ غير المصلي تتهاوى حاسته الدينية. ووجدانه الروحي نتيجة لبعد الشقة بينه وبين الافعال والاقوال الموصية بالخير والسمو الروحي.

ولقد حدث أن سمعت رجلا عاميا يستنكر وجود الزنادقة الدينيين من بين طلبة الدين الحنيف. ولو علم مثل هذا المتعجب أن التعليم والتحصيل الديني شيء. والتكوين العاطفي الديني شيء آخر. وانه لا لزوم من أن يكون



(الــرِّزْق بيــدْ رَبِّــي)

معلم الدين مربيا عاطفيا دينيا، كما قد يكون المربي الديني أبا عاديا أو أما عادية. ليس لها من المعرفة العلمية الدينية الا الشيء القليل – وانك لتعجب العجب كله. لو علمت كيف آن من المربين الدينيين العاديين، من هو على نجاح في تربية عاطفة ابنه مثلا. بما لايقوى عليه عالم الدين بنظرياته ورصيده العلمي الديني - ففي التعليم الديني تتجه العناية الى عقل الطالب، تقويه وتملؤه بالمعارف السابقة. بما يزيده مرونة وعهدية للتفسير والفهم. أما في التربية الدينية العاطفية فان العناية تنصرف الى وجدان الطفل. لتجعله على ميل للاتيان ببعض الافعال، وعلى ميل لترك بعض الافعال الاخرى. وظاهر بين المهمتين الفارق الذي ما أراد بعضهم الإعتراف بوجوده — وهكذا يكون السلوك الديني داخلا في عداد اخلاق الفرد. وبما أن الاخلاق هي في طبيعتها ميول نزاعة فلا أمل في تكوين الميل حينئذ ما لم نتبع الطريقة المؤدية الى انشائه في النفوس. وما هذه الطريقة غير التكليف العملي بنفس الافعال التي نريد من الطفل الميل اليها. واتيانها عن رغبة.

وههنا قد يدفعك الإستفهام الى ان تتساءل قائلا : كيف يجوز لك ان توفق بين هذين الموقفين المتعارضين، منذ لحظة استنكرت مع المستنكرين موقف مجلس الشيوخ الدينيين من قضية التاركين للصلاة. حيث كانوا على اتجاه يدفعهم لامر الطلبة بالصلاة، وحملهم عليها بالزجر والتأديب العنيف، والآن تمجد طريقة أمر الطفل بالافعال المتخلقة ليصبح على خلق دين ؟ نعم في الموقف الاول نستنكر الزجر

والضغط، كطرق تربوية تفرض على الشاب، ما كنا نريده منه عن طواعية، اذ في اتباع تلك الطرق الوصول الى النقيض مما كنا نريد، في حين أننا هنا نريد المربي من الايعاز للطفل بالفعل والايحاء له بالنزوع، لعلمنا أننا بنزوعه الحر، بنزوعه هو، يصبح ذلك الطفل قاب قوسين أو أدنى من الخلق الديني الفاضل –

تربيتنا الاجتماعية

في قول الرجل العادي : "الفرادَةُ عبادَة" ما ينم عن اعتقاده بأن الإجتماع يؤدي الى الشرور والإثم، وان الاولى بالمرء أن يعيش منفردا اذ في ذلك النسك والعبادة. فكما لو كان الرب جل جلاله قد أمرنا بالإبتعاد عن حياة الجماعة، وأوصانا بالإنطواء على أنفسنا، هكذا في حجرة مظلمة لا نغشى دنيا الناس، ولاننفع في آفاقهم الممتدة. وإن في ما يستروح من المثل السابق، الاشارة على الاطفال بالإنزواء وبالنكوص الى عالم العزلة، بدلا من الايعاز لهم باحتلال أماكنهم بين صفوف الامة، والتحمس على أداء المهمات والواجبات، وبدلا من الإيحاء لهم بالسعي الحثيث من أجل النفع والإنتفاع، عن طريق التئازر والتكافل، التعاون والتئاخي، التوادد والتحابب.



« الفرادَةُ عبادَةْ »

ان قائل هذه الحكمة لم يفهم قط، طبيعة الوجود الإجتماعي ان كان حقـا قصد بها ما انتهينا اليه من تحاليل، وما تحمل عليه غالبا من عامـة الناس. ولسوف يشقى بها كل المتأثرين بمملياتها تلك، اذ بالإضافة الى آلام الوحدة. هناك الحرمان مما ينعم به كافة أفراد المجتمع من أنس وبهجة لا يقوى الفرد على بلوغهما، الا بقيام صلات أخذ وعطاء. تربط مصالحه بمصالح غيره من عطرة وعشير. وعلى هذا الإعتبار يكون صاحب مثل هذا الإتجاه العقائدي. من الجناية على أبنائه في توريثه اياهم معتقده ذلك. وفي حملهم على عدم التعرف والتعارف، والوقوف من دنيا المجتمع موقف المتشائم وفي هذا الإستسلام الى الاوهام والمخاوف. ولعل أهم ما سيعانيه الابناء من جراء الإهتداء بوحي تلك الحكمة. ذلك التردد الذي سيلاحقهم في كل المواقف. اذ تشبعت أنفسهم ريبة وتشككا. في الصلات الإنسانية والعلاقات الإجتماعية. بما جعلهم على حيطة من الخيبة وعلى خوف منها على الدوام. وهذا هو المفسر الـوحيـد لمواقف الإرتياب والتردد في ضعاف الشخصية. ومن هنا يكون الاخذ بهذه النظرة التربوية، المتشائمة من المجتمع والإجتماع، محتما علينا القطيعة بين الطفـل وبين الحيـاة، بدلا مـن أن نساعـده عـلى السير فيهـا منذ البداية في شيء من التبصر بحقائقها: حلوها ومرها. حسنها وقبيحها. وليس مثـال هذا الطفل الا الإرتطام المستمر، اذ لم يمكنـه أبـوه مـن اختبار الحياة بان حال بينه وبين اكتساب القدرة على الالفة والمثالفة، على نفع الناس والإنتفاع بهم.

ولكم قيل لمن يدين ويهتدي بقولهم : "الفرادة عبادة" ان الفضيلة تكتسب في الإحتكاك بالناس، وفي اختبارهم والتعامل معهم، في ابتلائهم والإصطدام بهم، وان الحشية المبالغ فيها من أن يقع الشاب في المحظور. هي عين ما سيؤدي الى الوقوع فيه... وكم قيل أيضا لهذا النفر من الاباء المتشائمين بالإجتماع، ان مصير الطفل ومثاله وأهدافه كلها في الحياة الإجتماعية. فلا ينبغي حينئذ أن نحول بين طفلنا وهذه الحياة، بل الواجب التربوي يقضي بترك الطفل يمارس هذه الحياة في طبيعتها وشرائطها وموجباتها. ليزداد بها خبرة وليتقوى فيها ساعده على النحو الذي يستطيع به، في القريب أو البعيد، مجابهة الصعاب، ومغالبة العوائق، وتخطي العقبات

وفرض الإرادة على الوجود بشقيه المادي والادبي.

قد يجيبك أحدهم ازاء كل ما تقدم، بأن الشرور تملأ حياة الناس. والذكي الذكي من حاد بابنه عن دنيا الشرور. الى أن يقوى عوده وتنضج قابلياته. ولو أدى ذلك الى منعه عن الدراسة اوعن مواصلتها خارج القرية باحدى المدن الكبرى. ذلك، على ما يرى. لان الرقابة المانعة من الإحتكاك بالناس. أهم ما في الواجب التربوي ازاء الاطفال، وان هؤلاء ما لم تقوم مداركهم. ومالم تنضج خبرتهم، فانه تتحتم الحيلولة بينهم وبين دنيا البشر. وفي المثل الدارج : "البَشَرْ ثُلْثَيْهِ شَرْ" سواء بالنظر الى بنية الكلمة الثلاثية. أو الى حقيقة تصرفاته التي يأتيها – ولقد يزيدك في المحاجة بان يقول لك: يرحمهم حكماء أجدادنا في قولهم: "الخُلْطَة: بُلْطَة وَ الجَرَبْ يَعْدِي"، مدعيا بذلك أن الامراض الجسمية مثل الجرب وما اليه، ذات عدوى ينبغي أخذ الحيطة منها. بعزل الاطفال المعافين عن المرضى المصابين... وكذلك الامر نسبيا للشرور والآفات الخلقية الإجتماعية. فهي ذات عدوى خطرة تتقى بفصل الطفل عن المجتمع الى حين.

الحث على السلبية

طبيعي أن سيتصوب هذا التقرير، نظرا لما به من حقائق صحيحة، ولكن يستثني من ذلك كله أن التنظير بين القوتين : الجسمية والخلقية في خصوص وسائل المحافظة عليهما، ليس صحيحا من جميع الوجوه. ذلك أن المناعة الجسمية قد تكون حقا بالحجز وبتوقي الإتصال بالمرضى، أما المناعة الخلقية فهي على النقيض من ذلك تكون بالإتصال وبالإحتكاك وامتحان الحياة في شتى صورها ووجوهها. مثلها في ذلك مثل المناعة الجسمية المتولدة، عن تلقيح جسم الإنسان بجراثيم المرض المراد التحصن منه. ولعل المناعة الحقيقية هي في تعويد جسم الطفل، على مقاومة الميكروب، وليست هي دائما بابعاده عن الاماكن التي يظن فيها وجود الجراثيم المعدية – وهكذا تكون حال الطفل الجسمية كحاله الخلقية الإجتماعية، فبدلا من أن نعزل الطفل عن الوجود فلنتركه يغشاه مع تهيئة الظروف المواتية لنجاحه فيه، كأن نحثه على الفهم والتدبر، على الإمعان والتروي على ربط المواقف بنتائجها المتفاضلة، وعلى التخير من هذه ما يلائم الصالح الفردي والإجتماعي.

هذا وللتربية الإجتماعية في أوساطنا آثار حكمية أخرى. تناهضها وتقف في سبيل رواجها والإهتداء بها في تنشئة أولادنا. فلقد تقف معي على بعض من هذه الامثال الحكمية الشعبية. فيبهرك ما تمليه على الاباء من اتجاه انعزالي متشائم. وما توعز به للاطفال من مواقف كلها السلبية التي تقارب الموت ان لم تكن هي الموت نفسه. فمثلا عندما يربى الطفل على الحكمة القائلة : "الفمْ المَغْلُوقْ مَا تْدْخلُو ذِبَّانَةْ" بأن يحمل دائما على الصمت، واذا هو حمل عليه دواما واستمراراً فمن أين له تعلم التفكير. باعتبار ارتباط الإستعمال اللغوي بكامل الوظائف العقلية بما في ذلك التفكير؟ فعوضا من حث الطفل على الإصغاء والفات نظره الى فوائد الصمت التي قد يكون غافلا عنها نأمره بغلق فمه. ونلحقها به سمة وعادة قاهرة. فتكون النتيجة الإمعان في السكوت الى ما لا نهاية. فيما يجمل به غلق الفم وما لا يصلح فيه ذلك. وفي هذا تعطيل لنمو القابليات العقلية عموما. ويكون المثال السيء تعود الطفل على هذه السلبية. بما يجعله متساهلا في واجباته، متنازلاً عن مشروع حقوقه. وماذلك الا لانه التزم الصمت الذي لم تكن له قيمة مطلقة. بل نسبية للظروف والملابسات. وهكذا يؤدي حرص الوالد في تربية ابنه على الصمت. مؤديا به لا لتوقي دخول الذباب الى فم ابنه. بل الى ما هو أدهى وأمر من تجرع للملمات وتصدى للكوارث الى المذلة والمسكنة...

وعلى سبيل المثال لولا الصمت لما جاءت الحماية الفرنسية. ولما استقرت بالبلاد عهدا طويلا. ثم لولا الكلام والإصداع بالراي الحر لما انفلتت الاوطان من كابوس ما حل بها. اذ ما من أحد ينكر أن الحرية وليدة الوعي بها وبافيائها الوارفة. وهذا الوعي والإيمان ما كان ليحصل لولا الدعوات السياسية سواء منها المكتوب أو المتلفظ به، في الإتصالات المباشرة. ولكم قيل لروادالحركة الحزبية الدستورية عندما هبوا، غيرة على حال الموطن، يبشرون بالفكر الإصلاحية التحريرية : "الكلوفْ ليها رَاسْ مَالْ وإلاّ ذَقْنَةْ طِوِيلَةْ". قيل لهم ذلك لصدهم عن مهمتهم وللحيلولة بينهم وبين وسائل بلوغها التي من بينها نشر الوعي وبث الروح المؤمنة بالحرية والكرامة. ولكن هؤلاء الرواد وان لم يكونوا على راس مال

مادي. فلقد كانوا على رصيد أدبي يفضلون فيه غيرهم. فكانوا به على أهلية تامة للقيام بالكلف الوطنية... وهم أيضا لم يكونوا طاعنين في السن على أذقان طويلة. ليقوموا بنفس تلك الكلف السامية. وأنما كانوا على عقل ملؤه التبصر بمجريات الامور العامة، وعلى اطلاع بحقوق الفرد والجماعة المشروعة، الامر الذى اندفع بهم، للمطالبة بالقول، وللتضحية بالفعل، وللتفاني في معركة النضال الادبي والمادي. حتى النهاية السارة او القبر -

وإن طفلا يملي عليه الصمت، والشعور بالدونية تأثرا بهذا المثل السابق. سوف يكون عضوا هزيلا من بين صفوف الامة، سيما إذا حزب الامر ومست الحاجة الى الغايات المشتركة العامة. فبدلا من أن تنفعل ذاته بالاحاسيس الجماعية. يغضب ويثور. ترتد نفسه الى الوراء بوحي من تلك الحكمة لملاحظته ضعف حاله المالية أو صغره في السن - هذا وقد يكون حمل تلك الحكمة على ما يقارب المعنى المشار اليه بحكمة أخرى، تلك التي تقول : " الحَقُّ يعَمّرْ والباطِلْ يدَمّرْ " اذ يكفي الإيمان بالحق، وفي هذا راس المال الادبي، لينطلق المظلوم بكلفة المطالبة به . ومن فضل الله علينا ان كان ببيئتنا التونسية من آمن بالحق فهب في وجه غاصبه، وأراد به البعد عن المس بأقدس ما تحيا به البشر وهو القيم الروحية.

معرفة جزئية

هذا وان لم يتأت حصر مثل هذه الامثلة الصادة عن الإجتماع. وعن المشاركة الحية الفعالة فيه، الا أنه يمكن القول بأن نصوص تلك الحكم يمكن تأويلها بما لا يتعارض مع الغاية المثلى التربوية غير أن هذا لا يتأتى بسهولة، فالكثير الشائع أن الاباء لا يكتفون فقط بالإتعاظ التقريري، بل يجتازون هذا الموقف الى الإهتداء والإستيحاء من تلك الامثال بما يجب معاملة الطفل به، وتوجيهه عليه، من عقيدة وسلوك - فكما لا يخفى أن المشكل ليس في تمثل الاب بحكمة مناهضة للاجتماع، امام خبرة عاشها أو قصة رويت له، بل اخطر ما في هذا كله هو أن يتخذ من تلك الامثال شعارا ونبراسا يهتدي به في توجيهه الحياة وتشكيلها داخل أسرته - وظاهر أن الذي يدفع إلى هذا كله تخلف امكانيات الاباء الفكرية، ثم ضيق آفاقهم يحد من بصيرتهم، والا لماذا مثلا

لا يفهم الوالد الحكم التقليدية على أنها ـ وكثيرا ما تكون ـ تتويجا لخبرة خاصة، وبالتالي لا يمكن تعميم الاخذ بها في كل المواقف الا بشروط وقيود معينة؟ وضيق الافق هذا لا يؤدى فقط الى هذه النتيجة. بل الى ما هو أشد وطأة، وهو أن الوالد العادي قد لا يقوى على مقارنة الامثال الدارجة بعضها ببعض ونقد بعضها ببعض. فهو قد ينساق آخذا بممليات مثل عامي، جاهلا أو ناسيا أن من الامثال التي تعمر ذاكرته، ما يتعارض أو يقابل ما بهره منها وما أخذ بمجامع لبه في موقف من المواقف. وبهذا الملحظ النقدي نؤاخذ المتمذهبين بالحكم السابقة الداعية الى حياة منطوية سالبة، فهم مثلا لم يطلعوا او لم يتذكروا زمرة من الامثال الدارجة تطالب وتلح في طلب المشاركة الوجدانية بين الناس. باعتبارها الطريق الوحيدة التي بها يقوى الفرد وتتقوى الجماعات ـ فمن هذا القبيل قول القائل منا: مَعْرِفْتِكْ فِي الرِّجَالْ كْنُوزْ". وقولهم «العُودْ بْلاَ خُوهْ مَا يِقْدِيشْ". فهذان المثلان يحضان على الغوص في صميم الوجود الإجتماعي كما هو بين. على أن التوجيه التربوي المستوحى من هذه الامثال، كثيرا ما يتضمن الشعور بالقيم الروحية الفاضلة. فهو لا يطلق الحبل على الغارب بحيث يدفع على الإجتماع، دونما ايماء الى مراعاة بعض الشروط، والإعتبارات الاخلاقية والجمالية، في المخالطة والتعارف ـ فلننظر الى هذه الحكمة المأثورة: "إذَا ارْكِزْتْ إرْكِزْ السَّاسْ. أرْمِ الحجر شُغلْ قوّةْ، وإذَا عَرَفْتْ أعْرَفْ النَّاسْ، أهل الفَضْلْ وَالمرُوةْ" فهي، حكمة تمجد الاقبال على الناس، وتحدد لهذا الإقبال حدودا ضابطة ـ وانك لتجد في قولهم: "إعْمِلْ الخَيْرْ في أهْلُه وَغَيْرْ أهْلُه. حَتَّى يِصَادْفِكْ أهلُه" ما ينمي في المواطن التونسي روح الإيثار والشعور السامي بالفعل الفاضل ذاته. وليس التهيء للاخذ والإنتفاع الا ثانويا. وان مقابل ما نسديه من عوارف وحسنات، ليس هو المقصود ابتداء بفضائلنا وشيمنا ـ وانه ليقابل هذا التجرد الذى أوصت به هذه الحكمة السابقة، ذلك الاتجار المستهجن في قول القائل: وَكْلهْ قَدّيدَةْ يوَكْلِكْ مِسلانْ". ففي هذا المثل، وفي الاخذ به عند توجيه الاطفال، ما يوعز اليهم بانتظار المقابل في ردود فعل من نعامله بسمونا واخلاقنا

الحسنة. وفي هذا روح الإتجار بالفضيلة وروح النفاق الإجتماعي وإن كان هذا من الفضل في شيء، فالفضل كل الفضل أن يأتي المرء الفضائل لانها تروقه في ذاتها بقطع النظر عن فوائدها العملية المادية.

الحاسة الخلقيـة

هذا واذا كانت تربيتنا التقليدية غير غافلة عن الجانب الخلقي الإجتماعي الواجب تكوينه في الافراد، فهي أيضا تهتم اهتماما بالغا بانضاج الضمير وباذكاء الحاسة الخلقية فيهم، فمثلا عندما يقول أحدهم لزميله في العمل : "أنَا نقولِلكْ سِيدي وانْتِ إفْهِمْ قَدْرِكْ" ما يوعز للفرد بتبادل المعاملة، وبتقدير من يكن لنا التقدير والإحترام . وبداهي أن الاطفال الذين يربون بمثل هذه المعايير، سوف يأخذون فكرة واضحة الملامح عن طبيعة التعاون والعلاقات الإجتماعية، وفي ذلك خيرهم الاعم ونضجهم الاوفر.

وأيضا في القول المأثور : "إذَا صَاحِبِكْ عَسَلْ مَا تَلْحَسُوشِي الكل" ما يوقظ في المرء الإحساس بالآخرين من معارف وأقارب، بحيث يجمل بالفرد الا يبالغ في الإعتناء بمشاكله ومتعه الى الحد الذي يتعامى فيه عن الشعور بما للناس من حقوق عليه — أو انه يريد الإنتفاع بغيره في غير ما اعتدال واتزان — كل هذا يشير اليه هذان المثلان في لغة قصد بها مخاطبة الضمير واحياء الحاسة الخلقية.

ومما يحفل كثيرا بالاخلاق والشيم الفردية ذات الخطورة البالغة على تعامل الناس وتئازرهم قول القائل : "الكْلاَمْ الزِينْ يِدْفَعْ فِي الدِّينْ". ههنا ايعاز بحسن المعاملة وبجمال اللهجة نظرا لما في هذا السلوك من تأثير ترضينا نتائجه وتهزنا عواقبه. وبهذا المثل مبالغة معقولة وواقعية ازاء تقدير الناس للكلام المهذب ، فهو يدفع مع الديون ويقابله الدائنون بنفس ما يقابلون به الاشياء المستحقة من هزة وارتياح. ومن الحث على وجوب التحلي بالنطق الجميل والحديث اللطيف قول التونسي : "الجرْحْ يِبْرَى يَاصَابِرْ وِتْهِوَاهْ الضِمِيدَةْ"،

وكلْمة السُّوءْ مَا تَبْرَى تِبَاتْ وتِصْبَحْ جِدِيدَةْ" فالاشارة بهذا المثل الى ضرورة التخلي عن هجر الكلام ونابي الحديث نظرا لما ينجر عن النبز واللكز من تدهور العلاقات وتوتر الصلات الإجتماعية بين الناس. وفي هذا الاضرار والمساوىء التي لا تحصى - وانه لواضح في هذا الاثر التقليدي الإيعاز بما اوحى به المثل السابق ، الا أن الحث على الكلام الجميل والنطق المحبب كان بطريقة غير مباشرة ههنا. ثم في مواقف الخصام ان كان للمرء أن يشاجر ويجادل فليكن على هذه الحيطة في الايبوح بما يؤدي به الى وخيم النتائج، ولهـذا المعنى يشير الاثـر القائـل : "أعْرُكْنِي وخَلِّي بَاسْ تْقَابِلْنِي". وحينئذ لا غلو ولا ايغال في استعمال المؤذي من الكلام، بل فليكن منا الإحتراز، ولتكن منا رغبة في ابقاء العلاقات على نحو طبيعي بعدم التفوه بما من شأنه أن يأتي على جذورها ويقوض صرح الـود من أساسه ، الامر الذي لا يسمح فيما بعد بقيام تعـاون مثمر وتوادد جديد

فكل ما توصي به هذه الزمرة من الامثال السابقة هو الروح الخلقي المؤثر للغير، والمفضي بصاحبه الى تأسيس علاقات اجتماعية سليمة ومفيـدة للافراد والجماعات. فبدون تخلق الفرد بالكياسة والإيثار، بالميل للناس والرغبة في اسداء الخير لهم، لا يستقيم المجتمع ولايتقدم نحو الإزدهار والرقي. ولهذا كان المنطق الحكمي التقليدي واقفا من قضية التربية الإخلاقية الإجتماعية موقفا حازما، فيه رشد وسداد يتمثلان في الحكمة القائلة : "اصْحُبْ المِلِيحْ يِزِينِكْ، واصْحُبْ القْبِيحْ يِشِينِكْ" وههنا لا تخوف من الإجتماع ولاوساوس من أن يخطىء الطفل، وانما هنا نجد الإيمان بوجود الظروف الصالحة وغير الصالحة على السـواء داخل المجتمع، وايمانا بضرورة الإجتماع كيفما كان نوعه. ومع هذا الإيمان بحتمية الإجتماع توجيه آخر لاعمال العقل والامعان في المواقف الإجتماعية حتى نتخير مالنا فيه فائدة ممجدة ، ونبتعد عما فيه هنة مشنوءة - ثم هذا الاسلوب الآمر بالمخالطة والمصاحبة ضم اشارة تومىء الى جدوى اعطاء الثقة للطفل، والى فائدة الإعتداد بموازينه العقلية والخلقية، وفي هذا أنضج التوجيه وسداده، وبالتالي بلـوغ الارب من اعـداد الطفل اعـدادا خلقيـا اجتماعيا سوف يكتب له فيه النجاح والتوفيق في شتى المساعي.

نخرج مما تقدم بنتيجة وصفية لتربيتنا التقليدية وهي أنها ذات نزعة اجتماعية في تكوين الطفل، فهي بما أوجبته على الطفل من صفات خلقية اجتماعية، وبما لوحت اليه من فوائد الإجتماع و كمالاته. قد وقفت موقفا متطورا يتماشى مع التربية الحديثة في احدى نحلاتها المستحدثة، والملحة على وجوب الإعتناء بالجانب الخلقي الإجتماعي في الفرد.

على أن الامثال التي جاءت معاكسة لهذا الإتجاه كانت من القلة بحيث لا يمكن الإعتداد بها في تقييم طابع تربيتنا العائلية عموما. وينجم عن هذا كله امكانية القول بأن الشخصية التونسية في ظل اتجاه التربية التقليدية المتوارثة، هي الى الإيثار أقرب منها الى الأثرة، الى النزعة والميول الإجتماعية أقرب منها الى الإنزواء والمزاج الفردي، هي آخر الامر الى الإنبساط اقرب منها الى الإنطواء.



« الكلُوفْ لِيهَا رَاسْ مال، والاَّ ذَقْنَةْ طَوِيلَةْ »

الايثار والتقدم الاجتماعي

أي شيء أحب الى النفس من تحليها بمنفرد الخصال وممتع المميزات ؟ وأي مطمح أعز على المرء من اتسام ذاته بموفور المزايا ومستحب المواقف ؟ ثم أي داع هذا الذي يملي علينا حثيث السعي وشديد التطلع الى مرضاة الاقارب، وتقدير المعارف، واعزاز الاصدقاء واحترامهم لنا ؟ ؟

انه مما لا شك فيه ان مثل هذه الظاهرة السلوكية يحرص التوجيه التربوي العائلي بادىء ذي بدء، والتوجيه التربوي الإجتماعي فيما بعد على تنشئة الفرد عليها وإملائها عليه املاء يتمثل في ارساءمعاني اعتبار الذات المؤدية بطريقة حتمية الى معاني اعتبار وتقدير الآخرين. فالمشاهد لدى كل أحد أن الطفل قبل اكتمال النضج أناني النزعة لا يصده عن رغباته وأهوائهالا الاشباع المباشر، ولا يثنيه عن نيل مقاصده أي ارجاء أو إهمال. بل هو على ما نرى ونسمع لا يقوى على تحمل أي نوع من أنواع الحرمان حتى لو كان ذلك موقوتا. وهو أيضا على ما نراه فارضا لوجودهالادبي بطرق تتصف بطابع العنف. ومؤكدا لذاته المعنوية في محيطه الاسرى بوسائل بدائية فجة، تشتق طبيعتها من الدفع الغريزي. غير أن الذي تستهدفه امكانيات التوريث الادبي في المجتمعات الإنسانية قديمها وحديثها هو ايجاد نوع من التحول عن هذا الإتجاه للنماذج السلوكية الاولية الى التطبع التدريجي بالخلق التكيفي أو التوافقي للنزوع. فمع تقدم النمو وتطور النضج في معنييه الفسيولوجي والنفسي، يلقن الفرد بطريقة شعورية تلقينية أو تلقائية، أولى دعائم الشخصية الإجتماعية المتمثلة في القانون الديالكتيكي أو الجدلي للترابط الإجتماعي. فعند اكتمال النضج واستواء النمو يستسيغ الفرد أي حرمان موقوت في سبيل الحصول على متأبي المثل وعصي الاماني، فهو في تلبسه بهذا الموقف متعقل جد التعقل، ومتمثل جد التمثل، للاساس المرجعي والقاعدي للحياة الإجتماعية الا وهو الإيثار. فبالإيثار وعن طريقه يحضى المرء بما هو في مسيس الحاجة اليه من معاني التقدير، ومعاني السمعة، ومعاني المكانة الإجتماعية. وهو اذ يتحلى به في

كل مواقفه أو في بعض منها، نراه مركز الإهتمام في اسداء الايادي لافي تنتيها. ومثبت العزم على اتخاذ النفع لا الانتفاع كرائد للعقيدة. وعلى اتباع منهج التكافل في أعماله بشتى الميادين ـ فمثلا عوض أن يقول : "اخْطَ رَاسِي وَاضْرَبْ" يقول : "اللِّي مَسّْ الصُّبَعْ مَسّْ الْيِدْ بِكَلْهَا" وهكذا يصبح الفرد بهذا المعنى متبلور القصد والجهد، في استرضاء الآخرين بمثل هذا الشعور الواضح بالذاتية الجماعية.

فرضاء الذات يصبح ثانويا أمام مرضاة الاقارب والمعارف والمواطنين. واسترضاء هؤلاء هو ديدن كل متزن الشخصية ومتكامل القوى العقلية. فبعد أن كان المرء عاملا لرضى الذات حتى لوكان ذلك على حساب سخط الآخرين. تحولت القضية وأضحى الجهد متجها الى كسب رضى هؤلاء حتى ولو كان ذلك على حساب حرمان الذات واحباط نزعاتها الفردية . وبتقدم السن شيئا فشيئا تتطور المفاهيم وتترقى المستويات السلوكية في تغير المعايير التقييمية للسلوك الإجتماعي. الى الحد الذي يستحسن فيه تلف الذات ويستعذب فيه ازهاقها، تمشيا مع الرغبة في استرضاء الجماعة والحصول على رضاهم وتقديرهم. واعتقادا من الفرد بان الحياة لا تكون بغير الحصول على ما يريده الضمير الجماعي، وان الموت في سبيل إرادة المجموعة حياة وأي حياة ....

صلة الافراد بالمنظمات

ومن هنا يمكننا تلمس المدلول الحقيقي للتكامل الإجتماعي وخطورة التوجيه التربوي والإجتماعي والسياسي في إحكام لحمته وتوثيق أواصره. وهنا يمكن لنا أيضا استخلاص المدلول الحقيقي للتوترات والحزازات التي توشك ان تدك كيان المنظمات الإجتماعية والحزبية في بعض الاحايين. فكل تلك التوترات ذات منشإ تربوي وبيىء، اذ من البيئات ما لا يوجه الطفل الى ما كنا ننوه به، بل الى الإقذاع في الإذاية، والتنافس في إجادتها والتفنن في حذقها. وفي هذا تدهور للخلق الإجتماعي في الافراد وانعدام لفرصة التوافق الإجتماعي المنشود داخل المجتمع بالتالي .

وان الذي ينبغي الإيمان به أن صمود الفردية للذود عن ناموسها

وحدودها الذاتية أو عن نزعاتها الإنية داخل المنظمات . الإجتماعية منها والسياسية ، هو مكمن السر وموضع التعليل. لنشوء بوادر التفكك الفكرى وسبب عرقلة السير . ذلك لأن الجهود إذا تظافرت ظفرت . وإذا تكافلت وتكاملت اتجهت قدما الى الاهداف الجماعية وتساندت في السعي الى تحقيقها. أما اذا هي تنافرت وتعارضت، وأحرى إن هي تدابرت فانها ستبقى لا محالة في جهدها، عقيمة الإنتاج وانية السير محبطة المطامح. وهذا مالا يوده ذو شخصية اجتماعية ناضجة فهل عمل كل شاب تونسي على التحلي بمثل هذه الشخصية داخل المنظمات الرياضية أو الثقافية مثلا ؟؟

والآن أي الطرق التي يجمل بالفرد انتهاجها وانتقاؤها من بين المحاولات الطرائقية، الرامية الى اكتساب واضفاء شرائط الشخصية الإجتماعية الناضجة هذه؟ أو بلغة أخرى أي الوسائل العملية التي يجمل بنا ايصاء الشباب وحثه على اتخاذها نبراسا ومعيارا للتعامل الإجتماعي والاعمال الإجتماعية ؟

انها ولا شك وسيلة سهلة وعظيمة الأثر، تلك التي تستدعي من الفرد تمثل المبادىء العامة ذهنيا، وارتسام المثل العليا ذهنيا، في كل المواقف التي لا تلقى من النفس ارتياحا أو التي يحز وقعها فيها . انها وسيلة تستوجب قياس مواقفنا الشخصية بنتائجها العامة. ومتى بلغ استبصار الافراد مستوى هذا نضجه ، فان نشاطنا الإجتماعي داخل المنظمات سوف يكون مستمرا طالما توفرت له عوامل الإنسجام والتوافق ، تلك العوامل التي نعدها بيد الافراد قبل أن تكون بيد الموجهين..

البورقيبيزم

يقال في المصطلحات الفلسفية «هيجليزم» مثلا للاشارة الى النزعة الفلسفية التي اشتهر بها وبالدعوة اليها الفيلسوف هيجل، ويقال أيضا «مركسيزم ونازيزم وكابتاليزم وبورقيبيزم» للاشارة الى هذه النزعات المبدئية الإجتماعية ذات التأثير الخطير في الاوساط التي ظهرت فيها. وانه لبامكان الباحث العربي بدلا من أن يعرب هذا المصطلح اللاتيني فيقول : بورقيبيزم على نحو

ما تكتب وتقول الاوساط الاوروبية. فانه بالإمكان الترجمة على هذا النحو فيقول : بورقيبية للاشارة الى هذا الإتجاه الفلسفي الإجتماعي الذي بعثه للوجود ممثل الذاتية التونسية فخامة رئيس الجمهورية الحبيب بورقيبة.

وانك لتتساءل : ما لنا والحديث عن السياسة في هذا السياق التربوي ؟ أجل ان البورقيبية قبل أن تكون مذهبا سياسيا كانت أولا مذهبا تربويا. وانها ما كانت لتكون سياسية المظهر لولا النحلة المبدئية التربوية التي ارتكزت عليها في مراحل تكونها الاولى، إذ ما من شك في أن الرسالة الاولى التي تحدد بها نضال قائد الحزب الحر الدستوري التونسي هي بعث الوعي. وايجاد اليقظة الفكرية المناسبة للعمل السياسي المحض. فلقد تجندت الطاقة المترعمة لحزبنا العتيد، لكي تزيل كابوس الركود الذهني الذي كان مخيما على البلاد ابان الإحتلال الفرنسي. وإذا صح هذا فان البورقيبية، على ما نرى، ليست هي الانزعة تربوية سياسية ذات هدف سياسي قومي. نظرا لاتجاهها أولا الى الافئدة والعقول تريد بها تكتلا والتحاما واستبصارا بما هي فيه وبما يجب أن تكون عليه. ولعمري ما كانت النتائج الباهرة التي حصل عليها المجتمع التونسي لولا ذلك الإتجاه التربوي الذي هو بمثابة المحرك الحقيقي والجوهري، لكل الإتجاهات الاخرى التي جدت بالبلاد وأنعمت بها أوساطنا الفتية. فلقد غيرت النزعة البورقيبية أول ما غيرت الابنية الفكرية للمواطنين، وكان ذلك في بداية السير، نحو الموائد وفي المقاهي، في الإتصالات الشخصية ثم الدعائية. هنا وهناك بالهمس والحوار، بالتوادد والترغيب، بالإيحاء واثارة الهمة، بالإستفزاز والإشارة للنعمة. وشيئا فشيئا جاء دور الإصداح عندما قويت القاعدة وتجندت العقول والافئدة لنصرة الحق وافتكاك المشروع من الغايات القومية. وكان ما كان إلى أن أحرزت البورقيبية على مطمحها التحريري الجزئي ثم الكلي. فالناجز قريبا ان شاء الله. ولسوف تمضي الى غايات أخرى توجه لها العقول والافئدة أولا. ثم عندما تتكتل لها جهود القوم تضبط الخطط والمخططات حتى يتحقق ما كان حلما من الاهداف القومية النافعة — وهكذا تصبح البورقيبية ذات أثرين اثنين : فهي تستثير الوجدان القومي بمخاطبتها

القلوب وبعثها للغيرة الجماعية من جهة، ومن أخرى تضطلع بتوجيه العقول لتتدبر وضعها، وسلوكها على ضوء النتائج المحببة. فهي حينئذ لا تكتفي فقط باثارة الاحساس القومي، وتتركه مشدوها امام قعقعة الالفاظ. وجبارة المواقف. بل هي تثير وتحفز الهمم، على أن تتعهد الطاقات المبعوثة إلى الوجود الاجتماعي بالرعاية الموجهة، إلى أن تصل إلى الاهداف تدريجيا. إن تعذر تحققها دفعة واحدة — وبهذا المعنى يصح لنا أن نرى في البورقيبية تربية وجدانية اجتماعية. وأخرى عقلية تنويرية.

هذا وبودي ان لوسمح المقام للكشف عن كل جوانب هذه النزعة المذهبية، التي لو سنحت الفرصة في المستقبل لجعلتها موضوع اطروحة جامعية. نظرا لولوعي بدراسة كل ما يخص وسطنا الإجتماعي عموما. ولمطاوعة مثل هذه الظواهر المذهبية للدرس والتنقيب، واتساع مجالاتها للاستقراء والتتبع المنهجيين —

وإنه لما كان في البورقيبية ما كنا أشرنا اليه من اتجاهين تربويين : وجداني اجتماعي، وعقلي تنويري كان ولابد من الحديث عن أثر هذه النزعة المبدئية في أوساطنا، وعن مظاهر ذلك الاثر بالخصوص.

قد يذهب بعض المثقفين الى أن يرى للبورقيبية مراجعا كتابية مثل المقالات الصحفية، والمراسلات السياسية، والمكاتبات الشخصية. والخطب التوجيهية التي يكتبها ويلقيها واضع البورقيبية نفسه، بيد أن كل ذلك مضاف اليه ما كتبه الأجانب والاقارب ليعد سندا مرجعيا للجانب التوجيهي التربوي العقلي فقط، اذ كل تلك المراجع على شكلها المقروء في الصحف والكتب ينتقص فيها الطابع الإيحائي الذي قيلت به. فمما لا شك فيه عندي أن أهم الفوائد التربوية التي يجنيها وسطنا الإجتماعي في الإتصال المباشر وغير المباشر بفخامة الرئيس، هو ردود الفعل الإنفعالية — فهناك نوع من العدوى الإنفعالية تحصل بيننا وبين رئيسنا الجليل، فهو عندما ينفعل بالحقائق يورثنا انفعالا بها بالتالي، ومثل هذا المعنى لا يمكن أن أن يدرك الافي التساجيل الصوتية والسينمائية، أما الوثائق الكتابية فهي مراجع تفتقر الى ما يتممها بالاعتبار الذي ذكرنا.

ثم الاثر التربوي للبورقيبية إن نحن أردنا تحديد مداه، بعد أن

حددنا طبيعته فليس لنا امكانية لنفعل ذلك. فهو أولا أثر متواتر بالسماع الفاشي وبالإيحاءات الإجتماعية المتعدية. ثم هو بالنظر للاداة اللغوية الفصيحة استعمالا. يبلغ من ذيوع الاثر واتساع رقعة النفوذ داخل الوسط التونسي ما لا يبلغه أخطب خطباء الفصيحة اصطلاحيا. ثم يزيد في مدى وقع ذلك الاثر التربوي استمراره، في الديمومة الزمنية الى ما يقارب ربع قرن ويزيد. هذا الى أن النتائج الإيجابية المتكاثرة المتوالية، التي آلت اليها البورقيبية، جعلت المواقف العقلية التونسية بازائها من الإنتحاء والتهيؤ للتأثر الكلي بكل الإيعازات والتوجيهات، ، وفي هذا مظهر من مظاهر الاثر التربوي الإجتماعي لهذه النزعة في الوسط التونسي. ثم جملة: «يحيا بورقيبة» المرددة في اللعب على السنة الاطفال الصغار دون وعي واضح بمدلولها، وكذلك السيارات المسرعة في الطريق عند الافراح والمناسبات القومية، قد نجدها هي الاخرى مولولة بأزيز المنبهات، ومشيرة الى جملة حبيبة الى النفوس ”هَاوْ جَاءْ بُورْقِيبَةْ“ كل هذه المظاهر، وما اليها مما لا يحصى، لتعطي فكرة عن مدى تأثير البورقيبية في نفوس المواطنين. فهي استنادا الى ما سبق ذكره لم تتوصل لكسب الولاء الصامت فقط، بل حصلت على الولاء المعبر بلغة الفرح والهزة لدى الكبار الواعين المسؤولين، ولدى الصغار الوديعين أيضا — ولقد تختصم امراة مع زوجها فينتهي بهما مطاف النقاش الى أن تقول الزوجة مثلا : يِعِيشْ بُورقِيبَةْ الله يِقَيِّدْ فِي العَفَارِتْ“ مشيرة بذلك لعجز زوجها عن تطليقها والإضرار بها تعسفا وتظلما. وهنا أيضا زاوية يلحظ منها مدى تأثير البورقيبية في الوعي الإجتماعي بوسطنا — ثم هذه المفردات التي أصبحت على رواج في لغة العوام، أغلب الظن أنها وليدة الإستماع لفخامة الرئيس والتأثر به. فلقد جد بلغة التخاطب كم هائل من المفردات، ما كانت لتستعمل بكثرة منذ أمد قريب، فمثلا كلمات: احتجاج، الخطة، الوسائل، المهم والاهم، الديبلوماسية، النتائج، بحيث، إلى آخر الكلمات التي كانت فيما مضى وقفا على المثقفين دون سواهم، دخلت كلها الى لغة الحوار والأجتماع، واصبحت على رواج ومألوفية عند الخاص والعام بفضل سياسة الاتصال المستمر والتوجيه الدائب، الذين عرفت بهما البورقيبية في الداخل والخارج —

هذا ولعل أهم ما يؤكد وجهتنا من أن البورقيبية مدرسة تربوية. هذه الخطب الدورية التي هي بمثابة الدروس التربوية وجدانيا وعقليا. وهذه المؤسسات التربوية الحاملة لشعارها مثل قرى أطفال بورقيبة. وإجمالا هذه العناية الفائقة بالتعليم والتربية المتمثلة فيما خصصته سياسة فخامة الرئيس وأعضاده. من ميزانية ضخمة نسبيا لميزانيات المشاريع والمصالح الاخرى، فكل هذه الظواهر تشير الى المنحى التربوى البورقيبي في اتجاهه المتحمس للاتيان على التخلف. ذلك لان القضاء على التخلف العقلي بأوساطنا هو أسمى هدف في ظل الحصول عليه. تحقيق لكل الاهداف التقدمية: من قضاء على البطالة والرذيلة، الى تعميم الرفاهية والإزدهار بشتى أشكاله وصوره.

في السفور والاختلاط

ربما يكون وسطنا الإجتماعي على غرار كثير من البيئات الإجتماعية في احتفائه بالوليد الذكر أكثر من اهتزازه لميلاد الانثى. ولعل هذا التهيأ الموروث عن الاصول، من أسلاف، عرب أوجاهليين، له ما يبرره في نظر المواطنين. فالمواطن - على ما يعتقد - يفضل الذكر على الانثى باعتباره "عَمَّارَةْ الدّار" أو وريث لاسم أبيه، وخلف له في بيته. ثم هو كذلك على ما يتوقعه قوام على النساء، ويمكن الإعتماد عليه في مستقبل العمر.... وزاد الدين الحنيف فماز الذكر على الانثى في الميراث والعقل والدين، ثم ان هذه الانثى قد تكون أحيانا مظنة لجلب العار وتلويث سمعة العائلة - كل هذه الاسباب وما اليها، تجعل الوالدين يهتزون للمولود الذكر أكثر من اهتزازهم للوليد الانثى.. وهذه الاسباب كفيلة بجعل الاب يقف موقف الحذر من البنات... ولعله تمشيا مع معتقده ذلك ينتقصهن ويأثمهن في الكثير الشائع... ففي قول التونسي: "الرّبِيعْ رَبَّعْ وَاللّبَنْ قَرَاصْ، واللي عِنْدُهْ طُفْلَةْ يِفْتَلْلْهَا عَرَاصْ" ما ينم عن شدة الحيطة التي يعامل بها الآباء بناتهم. وانهم في احتياطهم ذلك قد ينظرون للطفلة كما لو كانت حيوانا أبكما يستدعي من مالكه فتل القيود وربطه بها... ولعل هذا التقييد

المسلط على البنت انما يكون في ربيع عمرها، حيث تكون الفتاة كاللبن الذي عرته الحموضة ويجمل إن لم ينبغ، التحذر منه والإرتياب في صلاحيته...

وجريا على هذا الإتجاه المأثم لجنس الانثى، تذهب الحكمة التقليدية في بلادنا الى الزعم بأن: "بو البنَاتْ مَا يبَاتْ هَانِي" لماذا لا يبيت نائما هانئا؟ لانه يتوقع منها الإثم والشرور، أو لانها عرضة لذلك على الاقل.. ولقد يبلغ بالوالد الوساوس القهري، والافكار التسلطية المرهقة، الى حد التلفظ بقول القائل: "الطفلَةْ دفلَةْ"، ذلك من جراء ما يكابد من مسود الإحتمالات، ومن قاتم الفروض والشكوك المرتابة في سلوك ابنته...

وإن مثل هذا الموقف من جنس البنات، ليدفع أولائك الاباء التقليديين الى التمسك بالحواجز التي يبالغ في قيمتها وفعاليتها، ومن ذلك "الحجاب" فهو رمز الخلق الفاضل وعنوان العفاف... وشعار الصلاح والتقوى... وبهذا المنظار يقول التونسي: المَرْأة كَالعَوْرَةْ، استرْهَا تستْرْكْ، أفْضَحْهَا تَفْضحكْ" ويسعى جهده في ألا ينظر الاجنبي عنه لوجوه من له عليهن رعاية وكفالة من زوجة وأخوات وبنات... وإن رؤية الاجنبي لابنته مثلا لتعد في نظره خدشا لكرامته ولاحساسه العميق... ثم هو إن رأى وجه امرأة أجنبية عنه، أوهو لاحظ على تلك المرأة، لا مبالاة في أن يرى الاجنبي وجهها، فذلك يعده منها تساهلا فيما يمس الشرف والعرض. ولعله تندر بموقف هذه المرأة قائلا: قطَاطَصْ الخربْ مَا تتْحجبْ". وهو يتمثل بهذا المثال المحقر للبنات اللائي لا يتشددن في تغطية وجوههن، زاعما أن هذا الصنف من الفتيات معد من قبل القطط الشاردة بين الاماكن الخربة المهجورة — وولي المرأة إن هو قال بضرورة الحجاب، لاسباب أو أخرى، فهو من باب أولى يدين ويؤمن بقضية فصل المرأة عن الرجل الاجنبي... فهو لم يكن يحجر النظر فقط بل هو يبالغ في منع الإتصال المباشر بينهما... فلا نظرة ولاتحية - ومثل هذه البوادر انما تفسر عنده على أساس غير خلقي - فلو رأى امرأة كأن تكون جارته، تتحدث مع أجنبى عنها أو حتى مع أي

شخص من أقاربها غير محرم عنها فانه ، يؤول ذلك الموقف بتأويل قاتمة ومؤثمة لكليهما — لماذا هذه الظنة بالمرأة ؟ لان اتصال المراة بالرجل هو دائما عرضة لإتيان المشين من الفعال والبوادر ...

تغيــر النظــرة

وطبيعي أن تتغير النظرة للاشياء وللحياة بين جيل وآخر... فلقد جدت نزعة تقدمية الى جانب ذلك الإتجاه التقليدى السابق... فاذا بالمرأة تلقى بالحجاب جانبا عن اقتناع وإيمان بأن الاخلاق ليست هي في ذلك الستر الذى تضعه على وجهها، بل هي في ميولها الدفينة وعواطفها التي اكتسبتها ونشأت عليها وأصبحت عنوانا لشخصيتها بين الخاص والعام... ولعل ولي امر هذه المرأةالمتحررة آمن بفضيلة السفور، لعلمه بأن من النساء من يحرص على تغطية وجوههن ويتسامحن فيما عدا ذلك..وأن من النساء من يسترن رذائلهن بالحجاب، يتخذ ن منه قناعا يساعدهن على قضاء مآربهن تحت جناح الليل وحتى في وضح النهار... ولعل ولي أمر الفتاة عند تسليمه الامر للبنت في أن تخرج سافرة، كان قد اقتنع بان المرأة ان هي خرجت من البيت وأعطيناها ثقتنا... وسمحنا لها بالسفور... فنحن بذلك نكون قد ساعدناها على أن تصبح أخلاقها أصيلة أى صادرة عن ذاتها التي بين جنبيها.. لا أنها تتخلق لوجودنا كحرس عليها تفعل ما نمليه عليها من الخارج... ولكم تدهورت أخلاق هذا النمط من الفتيات بموت أو تخلف الرقيب، لماذا؟ لأن أخلاق هذه الفتاة كانت تفرض فرضا من قبل وليها عليها — وزاد في النهضة الحديثة التونسية ان كثرت النوادي والمنديات التي يتواجد فيها الجنسان معا، ويتحدث فيها الرجل مع المرأة في شيء من الحرية البريئة ، ولكن مثل هذا الإتصال يفسر احيانا بالنظرة المنحرفة والمتشائمة... وانك لتتساءل في تعطش كيف آل الامر إلى ما نحن عليه.؟. بالامس القريب كان آباؤنا يعرضون عن التزوج بامراة كان قد رآها فلان أو كان قد رآها هو نفسه... فاذا نحن الآن لانسمح لا نفسنا بالتزوج الا ممن كنا حادثناها أو رأيناها على الاقل...

وبالامس كانت " بِنْت المَكْتَبْ " تنعت بازدراء، ويرغب عنها

الشباب وينصرف الى بنات الاصول ممن لم يخرجن الى الشارع والعاملات بالحكمة القائلة : "الطِّفْلَةُ تخرجُ إمَّا للعرْس أوْ للقبرْ". فاذا بالحالة الآن تتبدل ويصبح الآباء على ايمان بتعليم البنت. وبضرورة ترددها على المكتب لعلمهم أن مما يتزوج من أجله الرجل.رغبته في ثقافة الفتاة باعتبار تلك الثقافة أهم مميز تتحلى به شريكة الحياة وأم الإنجال.

إن من أهم أسباب هذا الوضع جديد.تغير في عقلية الجيل الحاضر عما كان عليه الجيل السابق... والتغير هو سنة الاحياء... واذا نحن حاولنا تفسير هذا التغير بمحاولة الرجوع به الى علله ودواعيه. ذكرنا أولا: كيف أن المرأة التونسية هي ذاته بنضالها في ميدان الإجتماع والتعليم قد دفعت الرجل ليعاملها معاملة انسانية، فيها وثوق بها، وفيها ايمان برسالتها التي ينبغي أن تقوم بها – كعضوة في مجتمع – على النحو المثالي الراقي... والى هذا المعنى نذكر اتساع آفاق الرجال أنفسهم وخروجهم بالتالي: من المركبات التي توارثوها جيلا بعد جيل... هذا الى العوامل النظامية التي جدت على حياة البلاد منذ بروز مجلة الاحوال الشخصية ، مضاف الى جميع ما تقدم الحملات الدعائية التي يقوم بها المفكرون بين الفينة والاخرى للقضاء على التخلف العقلي القائل ببقاء الحجاب، وبعدم خروج المرأة الى الوجود الإجتماعي لتعمل ولتنشط ، أو حتى لتتنسم عبير الحياة في شيء من التلقائية الحرة ...

تلقائية التغير

ولقائل أن يقول لماذا لم يعم ببلادنا السفور! ولم يؤمن الكثير منا بجدوى خروج المرأة للحياة، على الرغم من الدعاية والتنوير المستمرين منذ زمن بعيد ؟ في اعتقادي أن النتيجة التي يحاول الوصول اليها الباحثون في بلادنا لمشكلة الإختلاط – سواء كانت هذه النتيجة تقييمية للاختلاط ولنتائجه، أمهي دعائية لـه – فانه سوف لايكون لهذه النتيجة في نظري أي أثر إيجابي مباشر، في حث هذه الظاهرة الإجتماعية على الإنتشار، ولا في الحيلولة بينها وبين رواجها ان كنا حقا مقبلين على الأخذ بها. ذلك هو معتقدي الذي يستند الى الوجهة العلمية الإجتماعية التي ترى امكانية بحث الظواهر الإجتماعية، وإمكانية درسها وتشخيصها، وابانة

عواملها المسببة لها، والنتائج التي أدت إليها ؛ أما أن يكون في مقدور الباحث مهما كانت مقدراته الذهنية، أو وسائله اللسانية، اوفذلكاته الدعائية، أي حيلة أوسلطان يتيح له فرض ظاهرة بعينها على المجتمع، فهذا ما لم يكن وسوف لن يكون... ذلك لأن المجتمع يأبى ناموسه الطبيعي الا أن يمكن الدارس من الوقوف على أسباب الظواهر ونتائجها. أما السماح لنفسه بان يتملى الظواهر الإجتماعية عن المفكرين والموجهين، فهذا الامر تعذر في مختلف حقب التاريخ وفي مختلف أنحاء البلاد..

فما من فيلسوف في تاريخ المعرفة الا ونجده في الغالب، يحيا بمدرسته الفلسفية في واد، ومجتمعه يحيا في واد آخر... وما من مذهب اجتماعي نادى به مفكر او مصلح ؛ الا وأثمر على يد من أتى بعده من دعاة ومتمذهبين بأرائه — أقول هذاحتى لا يعتقد أن معالجة فكرية لأي مشكلة، أو ظاهرة من الظواهر الإجتماعية، معالجة فكرية بحتة، أو معالجة فكرية دعائية في وقت واحد، قد يؤدي الى التحكم في طبيعة الجماعة التي ينتسب اليها المفكر او الداعي، بأن يصير ظاهرة بديلة أخرى أو يبدل ما بالقوم — بين عشية وضحاها — من خصائص سلوكية ومميزات عقلية وابنية نفسية تلبس بها ولابسته طيلة مراحل تكوينية طويلة. فهذا خطأ لا ارتضي الوقوع فيه. فكل الذي يبذله المفكر في مثل هذه المواقف هو أن يهيء للموالي، ان يعد للمقبل، أن يرسل بالشرارة الاولى، أن يبذر البذرة الاولى. أما الجدوى، جدوى البذر وفوائده. جدوى الجهود والتوجيه، فهذا ما سيستدعي فترة زمنية تختمر فيها الفكرة.. ولقد تطول فترة حضانة التوجيه حسب درجة نضج الشعوب، وحسب بعد أو قرب محتوى الدعوة الاصلاحية من عقلية الجماعة — فالذي ينبغي اعتباره في هذا الصدد، هو أن بحث المشكلات او افتراض نظريات لمعالجتها، أو ايجاد فلسفات اجتماعية لتطبيقها، لا يعني هذا علاجها للتو، ولا يعني هذا في شيء اننا بذلك البحث المجرد نؤثر في إرساء وتوطيد الظاهرة الإجتماعة المدروسة... كما لا يعني قط أننا بذلك الجهد الفكري نستطيع استئصالها من جذورها كلية، فهذا ما لم يتم بين عشية وضحاها. كما قلت، اذ ما من ظاهرة لاصقت الجماعة مدة طويلة، لا يرجى بأي حال من

الاحوال زوالها الا بعد مدة طويلة أيضا.

صـــراع محتـــدم

وانك لتتساءل لماذا يبحث الشباب المفكر في الإختلاط ؟ ربما يتبادر إلى ذهنك أن هذه المشكلة لها أهمية، في نظر أرباب الاسر وأولياء الشباب وبالتالي فهي حرية بالدرس من قبل المفكرين والمعنين بالتوجيه التربوى. انني أعتقد اعتقادا جازما بأن سبب احتفاء الباحثين بهذا الموضوع، هو على التحديد تأزم الشباب التونسي.. فهو يملي بحث هذا الموضوع ليظفر بأقل ما يمكن الظفر به من عالم الجنس المقابل... فهو في تخيره لهذه المشكلة يعرب عن أمس حاجـة تحـز في نفسه وتضطرب بها سواكنه.. فهو على غير وعي منه يفصح بهذا الإختيار لمثل هذا الموضوع عن صراع، محتدم عز عليه ايجاد حل له. فاستهدف حله على أيدي من استنجد بهم من مفكرين يتوقع حلا ناجعا لمشكلته على أيديهم. وان انت تساءلت عن نوع وطبيعة هذا الصراع الذي يحياه الشباب ؟ قلت هو صراع يمثل شقا منه، رغبة ملحة وتعطش بالغ الى وجدان الجنس المقابل. هذه الرغبة الملحة هي التي تستجدي، على يد الباحثين، طريقة للوصول الى أقل ما يمكن الحصول عليه من هذا العالم المنبع الحبيب، الذي حببته الجبلة، وتدفع اليه الفطرة، التي لا قبل للشباب على التحكم فيها تحكما رشيدا. فالشباب يحيا تحت وقع هذه الرغبة المتلهفة الى الإختلاط، الاختلاط الذي هوفي واقع الامر يرمز الى تطلب وجدان الجنس، أوهو مظنة للحصول على ذلك المقوم الذي يفتقر اليه كل من الجنسين، وينشده من الجنس المقابل له ـ هذا طرف للصراع الذي يعانيه الشباب التونسي، أما طرفه الثاني فيمثله عائق متجهم، وريبة حيرى، وتشكك رادع يخالج على الدوام نفوس أولائك الاباء القساة ـــ على ما يرون ـــ وأولئك الاولياء الذين يتخذون رائدا لهم حكما شعبية ذات ايحاء جبار في هذا الموقف، كتلك التي تقول : "مَا تِدْخِلْ لِدَارِكْ كَانْ القَمْحْ وَالشْعِيرْ أمَّا الفولْ يِقَرْبَعْ" ـ ففي هذا النص الحكمي مثلا ما يملي الإرتياب في كل من الزائر والماكثات بالبيوت. ولقد يتدرع ولي أمر الانثى بقول القائل : مَا يَجْتَمَعْشِي البَارُود مع النَّارْ" عندما يحظر ويبالغ في منع اجتماع الفتاة والمرأة، مع الاجنبي أو القريب من جنس الرجال ـــ لماذا هذه الشدة

في الرقابة وهذه المبالغة في أخذ الحيطة ؟ لان الإختلاط في نظر هؤلاء الأولياء. يمكن من فرصة سانحة لوقوع المحظور. ولحصول التغرير والغرور. ومن هنا قالوا بوجوب إحكام الرقابة. والتشديد في الردع والزجر. بما يجعل فرص وقوع الخطإ بمناى عن الحياة الإجتماعية للشباب. وهذا سيستوجب الإبقاء على انفصال الجنسين : كل في عالمه لا نظرة.. ولا ابتسامة.. ولا كلام قد يؤدي الى موعد .. أو الى لقاء ... أو الى وفاء ...

هـل مـن متنـفس للكبـت

هذا هو الموقف في جوانبه الإنفعالية الواقعية. الشاب ينفعل بما توحيه اليه غرائزه وتعطشاته الجبلية... وولي أمر المرأة ينفعل غيرة على سمعته، وسمعة من له عليهن اشراف. أو هو ينفعل خشية خطإ البنت بما يؤدي بها الى نتائج وخيمة قد تضطره صلته بها الى ان يتجرع قسطا وافرا منها. وهذا هو الموقف الذي يتمي ازاءه الشاب في سورة. في صراع : فهذا دافع عتي يدفع الى المرأة الى الصلة الإنسانية بها على الاقل.. وهذا رادع قاس ورقيب مرتاب لايعرف الثقة بأحد. ولايعرف الونى في فرض سلطانه الجافي — فهو دواما واستمرارا يقف حجر عثرة في سبيل ذلك الدافع الملح. فمن أين له اذن التوفيق ؟ وكيف يكون ذلك ؟ هذا هو تساؤل الشباب. ولقد يدفع الشباب في حيرته وازمته تلك، الى أن يعرض مشكلته على بساط النقاش والبحث، يتملى الحلول عساه يجد متنفسا للزمت الذي يعانيه والكبت الذي يقاسيه — وانني ازاء هذا الصراع الشعوري او اللا شعوري لمدفوع الى ذكر الحل الآتي على الرغم من التقديم للموضوع بما يملي اليأس والقنوط على هذا الشباب المأزوم. انني أرى في النهاية أن النفس التي تأذت من الصراع هي عين النفس التي أملته. فالمشكلة ليست اجتماعية. وان هي كانت كذلك، فهي أيضا مشكلة نفسية فردية. فالشباب المتأذي بهذا الوضع الذي يخاله مفروضا عليه ولا حول له ازائه ولا قوة، هو نفسه الذي نعده مصدرا لعوامل هذه الوضعية القائلة بفصل الانثى عن الرجل. ذلك أن الشاب التونسي. عندما يتمثل ما بيد غيره من حسان وقيان. فانه يصبو الى الإختلاط وتهفو نفسه اليه، ولعله يحث عليه ويبالغ في الدعوة اليه .. أما عندما يتمثل ذهنيا اللائي له عليهن ولاية أورعاية. ممن تربطه واياهم

صلات القرابة والمصاهرة. فانه والحالة هذه يحجم وينبذ الإختلاط ولايقول به، ولابأي نفع يرجى منه للافراد والجماعات، على السواء. وبهذا التحليل تصبح الرغبة الشعورية أواللاشعورية في الإختلاط، من قبل الشباب لاتتعارض مع حاجز اورادع خارجي عنها فقط، بل مع رغبة مضادة لها في نفس الشباب ذاته. وهنا إذا أراد هذا الشباب التغلب على ما يقف في سبيل وصوله الى غايته، في أن يسمح له بالإقتراب من مصدر الدفء ونبع السعادة. فليجرب مغالبة نفسه في أن يبيح لاخته مرافقة من تشاء من صحاب أو معارف مثلاً. عندها يؤمن ألا سبيل للتغلب على العراقيل بالإقناع المنطقي. ولا بالوسائل الدعائية. بل بتغير العقلية التي تقيم المواقف والاحداث تغيرا كليا. بل بتغير معاييرنا التي اكتسبناها طيلة مراحل تكوينية متشعبة طويلة.. وهذا مالا يتم الا بعد مراحل زمنية طويلة أيضا... ويكون عادة ذلك التغير تدريجيا لابغتة او فجاءة كما يتوهمه البعض...

هذا مع الإلماح الى أن التدهور الخلقي لا يدفع اليه السفور والإختلاط بقدر ما يدفع اليه الحجاب، وتأثيم المرأة ومعاملتها معاملة فيها انتقاص وارتياب. أو فيها شدة وقسوة. فالاكيد أن مثل هذه المواقف هي عينها التي تملي الإنحراف والتنكب عن جادة الدين والصواب... ولعل أهم أسباب التخلف الخلقي، هو الجهل وعندما نقول الجهل لانعني ما يرفع بالتعليم. بل نعني بالجهل ما يقابل المعرفة بالحياة، والحياة الإجتماعية على الخصوص... فالفضيلة كما هو معلوم. تكتسب بالتجربة لا بالتلقين، ويكتسبها الشاب بخبرته وبمجهوده حتى تصبح مقوما من مقومات ذاته.. وليست هي تفرض من الخارج بحيث يستطيع الوالد خلعها على الفتاة كما لو كانت لباسا مطرزا... وأخشى ما نخشاه على مثل هذه الفتاة التي تتلبس بالفضائل كما لو كانت ثيابا، أن تاتي فرص وأن تحف ظروف. يكون من السهل على مثلها خلع ما تحلت به من اردية، ما كان لها فيها رأي وإيمان... واذا ما قلت أنت: إن من النساء من كان له خلق يتلخص في قولهن: "وَاحِدْ لِلْعِشْقَة، وَوَاحِدْ لِلنَّفْقَة، وَوَاحِدْ لِلكَفْ وِالبَزْقَة". فان الذي ينبغي أن يتبادر الى ذهنك، هو أن هذا النفر قليل. ولا يمكن القضاء عليه لانه لم ينعدم لا في العصور الخوالي، ولا الحاضرة، وليس يجدي الحجاب، او الحجز بالبيت، اوشدة المعاملة، في ردعه أو الوقوف في وجه انحرافه.

في طــرق الضغط

ليست تربيتنا التونسية وعلى الخصوص ما تفشى منها بأوساطنا العائلية . بمستثناة عن عموم التربيات الشرقية . فهي تملي على الطفل املاء وتفرض عليه من عل، ما تراه صالحا أو تجتهد فيهوتحسبه الصواب او الحسن . فهي حينئذ تؤمن بالضغط كطريقة يتوصل بها الى الاهداف المنشودة، في حاضر الطفل ومستقبله الآجل. وتكاد التربية كعملية تتوازى في تلك الاوساط مع الضرب والتبريح الجسديين. اذ كثيرا ما يراد الحيلولة مثلا بين الوالد الغاضب، والطفل الخاطيء الآثم، لكي لا يتأذى هذا الاخير بما ينجر عن جام غضب وليه ذلك، من خطير اللكمات وشديد اللطمات. فاذا بمثل ذلك الوالد يمعن في شيء من الاصرار على ايصال الاذى بابنه. مدعيا الحق في تربيته التربية الحق. او مدعيا الإضطرار للقيام بالواجب التربوي ازاء ابنه. ولعله أحيانا يستشهد بكلمة مأثورة على السنة أمثاله ممن هم على شاكلته في الإنتصار للشدة والعنف كطريقة مثلى في تربية الابناء. فيرددها في شيء من الإحتجاج المعتد قائلا : "خلّيني نربّي ولدي" كما لو كانت التربية في نظر هذا الوالد المغفل لا تتأتى الا باذاية الجسم وباذاية الجسم وحسب...

وبتونس عندما يطلق المواطن العادي كلمة تربية لا يعني بها سوى تلك العمليات المأثرة في الجانب الخلقي الإجتماعي. وما كان ليقصد بها التنوير العقلي، أو الترويض الجسمي مثلا، بل هي تشير لأول وهلة إلى علمية الاعداد الخلقي والتكوين الإجتماعي أكثر من أي شيء آخر.

وعلى هذا الاساس عندما يقال بأوساطنافلان "ناقص تربية" أو "قليل تربية" أو "مربي" فانما يقصد بكل ذلك ضعف الجانب الخلقي الإجتماعي،

أو فوته. ومن هنا يمكن القول بان ورود هذه الكلمة في المنطق الحكمي التقليدي محدود بمدلولها لدى الإستعمال الذائع بين أوساطنا. اي أن كلمة تربية في تلك النصوص الحكمية. لا تشير أبدا إلى التكوين التربوي الشامل لمختلف أوجه ونواحي شخصية الطفل. بل هي على الارجح تلوح إلى تلك العناية والرعاية بالجانب الخلقي ليس غير.

وانه لمما يمتدح في ميدان التربية العائلية بتونس اثر العصا في تنشئة الطفل واعداده. ولكم يدفع الاباء ذلك الاعتداد بالعصا وباثرها التربوي فتراهم يتواصون شرا بالطفولة البريئة، عندما يلقن بعضهم بعضا قول القائل : "اضْرَبْ وُرُدْ لِلتَّرْكِينَة" و "إمْلاَ له كرْشُه وَاعْطِيه لَعْصَا" وقولهم أيضا : "إذَا وَكّلْت شَبّعْ وإذَا ضَرَبْت أوجَعْ" و "بَكِّيه قْبَلْ مَا يبَكِّيك" و "عَطّلْ عَصَاكْ تخسر ولدك" و "اضْرَبْ صْغيرك خيرْ مَا يَضْرَبْهولك النَّاسْ" وقولهم : "وِلْدِك وَكّلُه واكْسِيه. وَاضْرَبُه بَاشْ تْرَبّيه". فكل هذه التوصيات وما اليها انما ترمي — على العموم — الى ضرورة الاخذ بالشدة والحزم، بالصرامة والعنف. بالضرب والتبريح الجسدي في معاملة الاطفال وتربيتهم. ولعل مبلغ الإيمان بفاعلية العصا — تلك الاداة السحرية — في ردع الطفل وتعويده على المواقف المحببة الحسنة. هو الذي أملى على الحكيم التقليدي ايضا قوله : "الطُّفُلْ كالحَلْقَة مَا يطيبْ إلاّ بالدّقْ". وهنا نتلمس الروح التربوية التونسية في موقفها من الطفولة. فهي تصدر عن معتقد يؤثمها ولا يراها الا مصدرا للشر والإنحراف من حيث الخلقة والطبيعة الجبلية. ولكم دعي الطفل بكلمة : "شيطَان". وسواء كان الولي التونسي يعني ما يقول بتلك الكلمة أو هو يمازح بها طفله. فان الذي لا شك فيه ان هذا الإستعمال وهذا الإطلاق لكلمة الشيطان، انما يشير الى طبيعة نظرة المربي التونسي للاطفال. وطبيعة معتقده في سجايا الاطفال وميولهم. ولوقفة امعان في هذا المثل الدارج ببيئتنا. تصور لنا مدى الغلو في تأثيم الطفل ومعاقبته. فالطفل فيما يشير اليه هذا المثل الدارج لم يكن منظورا إليه على أنه انسان أو حيوان أبكم . بل على أنه كالجماد الصلد.. فهو في نظر بيئاتنا المربية على العموم

لا يتأثر من داخله لانعدام الحوافز الذاتية لديه. وإنما هو يُرى على أنه يتشكل بالضغوط الخارجية مثله في ذلك مثل الحلفاء. التي لا تلين للغزل بسوى الدق وإعمال الهراوة الضخمة فيها.

الاستثـــارة الكـلاميـــة

وانه ليتبع هذا الإنتصار للعصي والهراوات انسياق، يكاد يكون شاذا. نحو مواقف الشدة والغلظة بصفة عامة ـ فالتربية عندنا ذات طابع انفعالي وكان الاولى بها أن تكون متعقلة وعلمية في وسائلها وغاياتها. في نظرياتها وطرقها... ـ وانك لتجد في أوساطنا العائلية التونسية التوترات الإنفعالية والثورات الإنفعالية. مهيمنة على معاملتها للطفل في الكثير الشائع. بما يجعلنا نميل الى الإعتقاد بان هذا اللون من المواقف الحادة للاباء. هو الاصل والعلة فيما عرفنا به منذ عصور بعيدة من حدة المزاج والطبع ـ فالوالد العادي بأوساطنا ان هو لم يضرب طفله. عنفه بجارح الكلام وآذاه بمثير الجمل. وإن طالبه ابنه فلذة كبده. بالرحمة في المعاملة خاطبه في شيء من النصح والإرشاد قائلا : "الكْلاَمْ الوَجّاعْ نَفّاعْ" و"مَا تَأْخُذْشِي كْلاَمْ اللّي يِضَحْكِكْ. خُوذْ كْلاَمْ اللّي يِبَكّيكْ".

وهو في سوقه لهذين الاثرين الحكميين بعد التوطيد لهما ببسملة الامثال العامية عندنا (وأعني بهذه البسملة قول المستشهد قبل عرض الاثر المراد الائتناس به : "يِرْحَمْهُمْ النّاسْ الاولى قَالُوا") يذهب الى تأكيد نظريته في التربية على أنها لم تكن الا مساوية للاستثارة الكلامية. وفعلا فلقد تلفى بيننا جمهرة غفيرة من الاباء العاديين. من هذا الإعتقاد بصحة هذا الإتجاه. بحيث اذا هم أرادوا تربية لابنائهم. لجأوا من حيث يشعرون أو لا يشعرون الى السب والشتائم. كما لو كانت هذه من قبل الوسائل المربية للطفل إن لم تكن في نظرهم ذلك. الوسائل الوحيدة التي يمكن بها ردع الطفل وتنشئته التنشأة التامة الكاملة.

وانه لمما يعقب به على هذا الإتجاه ـ الذى لا نشك في تقلص ظله بين الاوساط المستنيرة عندنا. كما لا نشك في اتجاهه نحو الإضمحلال

شيئا فشيئا تمشيا مع سنة التطور — قلت انه لمما يعقب به على هذه المواقف التربوية المتخلفة. ذكر بعض من الاضرار الخطرة ذات التأثير السيء على حياة الطفل المقبلة. من ذلك ما يسببه كل من الضرب وما تصرف عنه كالتخويف. وما قاربه من التحدي والتهديد باستعمال العنف. من انقسام ذاتي في الطفل. سيصبح بسببه على حقيقتين متباينتين : واحدة يحيا عليها فيما بينه وبين نفسه وأقرانه ، وأخرى يحيا بها ويعامل بها مصادر العقاب الجسدي او الأذى المعنوي من آباء ومربين — ثم هذا العقاب المادي لا يعني أبدا اصلاح وتهذيب الطفل وان هو أبدى ارتداعا وارتعادا بأثر تأذيه الجسمي ، لان الطفل كثيرا ما يستمر على غيه وانحرافه على الرغم من العقاب والمبالغة في تسديده للاطفال، سواء في السر أو العلن. ولعله يزداد تعنتا واصرارا على فعل ما ضرب من أجله، جريا على قاعدة الإيحاء العكسي في حياة الطفولة. فالمعلوم أن الاطفال كلما كانوا صغارا لوحظ لديهم الولوع الواضح لاتيان الافعال التي يبالغ أولياؤهم في التحذير منها والزجر عنها. وانها لعادة سيئة تملي على الاباء العاديين التأبي عن الإقتناع بتخلف العنف والإقلاع عنه. ولو علم الوالد أن البوادر المعوجة الموجبة للضرب في نظرهم. هي مملاة عن ميول وباطن معوج . ومن هنا لو علم الاباء بذلك وكان لهم حدب على مستقبل أبنائهم، فانه لجميل بهم توخي الطريق المؤدية لذلك الهدف، اذ ليس من سبيل لبلوغ هذه الغاية الآجلة في حياة الطفل الا بتوفير الظروف التي تساعده على التفكير والروية. أو اننا نتيح له أجواء الإقتناع الذاتي بالفعل أو الترك... أو ان شئت قل : نتيح له ظروف الميل عن القبيح المبتذل. والتعلق بالمليح الممتدح..

مراعاة العلاقة الودية

ثم هناك نتيجة ضارة أخرى فيما يظنه الاباء العاديون تربية وفيما يخالونه اصلاحا وتوجيها تربويا. من تلك المواقف المبرحة بالاجسام الضعيفة. فالاطفال عندما يعيشون هذه المواقف القاسية تنفصم علاقتهم الحبيبة مع آبائهم للتو. وتنقلب أنفسهم إلى ما يشبه الاتون المستعر. وإذا هم هائجون مائجون منحصرة اذهانهم، متبلورة مشاعرهم، في تلك الآلام المادية أو المعنوية. وفي

هذا الوضع الذي انقلبت فيه الروابط من الحدب والإقبال. الى النفرة والإبتعاد. تلقى النصائح والإرشادات والتوجيهات الحكمية. ومن أين للطفل والحالة هذه أن يعي. وأن يفهم ما يعيه وينهمه الوالد. وحتى لو ان هذا الطفل على عقل ناضج. فلسوف تضطرب امكانياته حتما ازاء مواقف الاب المرشد الناصح بعد أن فصم صلته بابنه باستثارته تلك المشاعر القائمة في نفسه الحساسة. هذا وأخطر ما في مواقف العنف والشدة أن يكون ون الطفل صادرا فيها عن روح متشفية أو مقتصة من الطفل. ففي هذا يكون الوالد معاملا الطفل. كما لو كان ناضجا. عليه ما على الكبار من مسؤوليات. ولديه ما لدى الكبار من امكانيات. وهذا بالطبع عين الخطا الفادح. ثم بالإضافة الى عدم معقولية التعامل مع الطفل كما لوكان ندا. فاننا نشير الى أن التربية الواجب تقديمها للطفل انما هي تنبني على ما نستهدف، وما نطمح إليه في حياة الطفل العاجلة والآجلة. ونرى بها دائما نفع الطفل أولا وقبل كل شيء. وهنا لزاما على المربي أن يستوحي تربيته في اتجاهها ووسائلها من هذه الإعتبارات. وما من قائل بتغريم الطفل او الإقتصاص منه باسم التربية. لان هذه لا تلتفت الى الماضي بقدر ما هي متجهة ومندفعة الى حاضر الطفل ومستقبله. تريد للطفل معهما التوافق والتكامل. وتطمح إلى أن يكون الطفل فيهما أرقى وأقوى وأفضل..

... أبدا لا يستطيع ذلك الطفل فهم ما بعقل أبيه وان هو استطاع. فلن يكون لتأثره بمقولات أبيه نتيجة مرضية.. وان كان لتلك النصائح من نتيجة ففيما تثيره هذه من استجابة انفعالية بحتة، سوف تتمحض الى الزوال بانتفاء مسبباتها وظروفها – ولئن سألنا مثل هؤلاء المتشبثين عما يمكن به تغيير أخلاق الأطفال المنحرفين رددنا لهم رأي «جون دوي» John Dewey أحد أئمة التربية المعاصرة إزاء المشكل التربوي الخلقي حيث يقول: لا نستطيع تغيير الاخلاق بالوعظ والإرشاد دون أن نغير نظمنا العملية والسياسية. ويقول: ان الاخلاق هي مجموعة رغبات الفرد وميوله الفعالة التي تجعله دائما على استعداد للاتيان ببعض الافعال، ومغرما ببعض النتائج، وفي الوقت نفسه كارها لبعض الافعال والنتائج الاخرى." وبهذا المعتقد يزعم «جون دوي» أن التربية الخلقية تتكون خلال التربية الحية

والنشاط العملي. فهو لا يؤمن مطلقا بتعليم الاخلاق بواسطة تلقين مبادئها. لانه لا يوجد في طبيعة الاراء عن الاخلاق. والمعلومات عن الامانة والعفة والشفقة مثلا. ما ينقل هذه الآراء نقلا آليا الى نفس الطفل. فيصبح حسن الاخلاق. بل الاجدى، في نظره. أن تكون أخلاق الطفل عن طريق الإختيار والتفكير. وعن طريق فعل يأتيه. لاقصة أو حكمة نرويها له.

وهكذا تصبح الطريقة المثلى لتعليم الاطفال ما نطمح له من خلق فاضل هي العمل. أي تكليف الطفل بالعمل والنشاط الحي. ففي هذا الإجراء فرصة لقيام تلك الميول النزاعة التي هي عين الخلق. واستنادا على هذا الراى السديد وعلى هذه الحقيقة المتملاة من الواقع المعاش. يمكن القول بأن الاب تتهيأ له فرص اصابة هدفه المنشود في حاضر ابنه ومستقبله لو هو أو عز لإبنه باتيان الفعل الفاضل أو المتخلق. بدلا من مضيه في أمره إياه شفويا. باستعماله الجمل الصارخة والعبارات النابية والمثيرة. وأولى به أن يحاول الإبقاء دواما واستمرارا على علاقته الإنسانية الحبيبة، والهادئة الهانئة. مع فلذة كبده الذي هو أحوج ما يكون الى سنده العاطفي في هذا الطور من حياته. وانه لفي هذا الإجراء أجواء التأثير الاقوى على الطفل، اجواء الإقتناع والرضى بالفعل أو الترك لا الفرض والقسر من الخارج.



« عصاة المؤدب من الجنة »

إذا كانت تربيتنا العائلية تعتمد بالدرجة الاولى على الضغط والعنف. على التهديد والوعيد. على استثارة مشاعر الحنق والتبرم في نفسية الطفل. سواء بالحرمان المادي او الادبي ، اوبالايذاء الجسدي او الروحي. فإن الاهمية القصوى التي أحرز عليها الضرب وادواته في قاموس الامثال العامية لتجعلنا نوقن بصحة نعت تربيتنا في أهدافها وطرائقها بالشكلية. ولا مغالاة ان نحن رايناها ذات نزعة شكلية وذات هدف وطريقة شكليين. في كثير من الحالات. لاننا نراها تقترب من التربية الاوربية في القرنين السابع والثامن عشر. ففي هذه التربية الاوربية كان الإتجاه الى الشكلية المادية الورعية من الوضوح البارز الامر الذى دعى «بول منرو» الى وصفها بقوله : "انها تهدف إلى أن تشكل طبيعة الطفل. بأن تفرض عليه طريقة التفكير التقليدية وطريقة العمل العادية بله الإستجابة العاطفية. فهي والحالة هذه تريد أن تحل محل التأثيرات الطبيعية الغريزية للطفل. تأثرات صناعية. نمتها خلال عدة أجيال الإتجاهات الدينية أو العقلية او الإجتماعية".

فالوالد التونسي عندما يذهب الى تربية ابنه بالضرب والتبريح الجسديين. ينزع عن معتقد يرى به التربية عملية صناعية لا طبيعية. عملية امداد واضافة من الخارج لا عملية نمو من الداخل. هو في ذلك يراها تحصل كنتيجة التلبية لمؤثرات خارجية. لا أنها تتم وتتولد عن عمل الغرائز الطبيعية والميول الفطرية — مثل هذا الوالد الغليظ القلب، لا يذهب الى ما تذهب اليه التربية المتقدمة. في أخذها التربية على أنها عملية توسيع للقوى الطبيعية. بل يراها عملية اكتساب للمعلومات . وعملية اعداد للحياة المقبلة والبعيدة . في خصائصها واتجاهاتها المميزة لحياة الطفولة ذاتها ؛ فهو حينئذ لا يعانق المفهوم المتطور الزاعم بأن التربية هي الحياة نفسها . وان هي كانت تتضمن اعدادا لحياة مقبلة. فان هذا الإعداد لا يكون ولن يكون. الا عن طريق حياة الطفل الحاضرة . وبالتالي لا بد من الإعتراف بحياة الطفل الحالية وتوفير أسبابها وشرائطها الضرورية.

وفي قول المثل : "عَصَاةْ المدّبْ مِنَ الجَنَّةْ" ما يفصح عن الإيمان بفاعلية العصي في تربية الاطفال. ولست أدري هل كان أصل هذا المثل السيد المؤدب. بحيث هو الذى أشاع شائعته تلك ليقبل الناس على تعريض أبنائهم. زاجرين أو مقتصين. لهذه الاداة المبالغ في تصور نفوذها وآثارها التربوية — وإذا كان مأتى هذا المثل السادة المؤدبين على ما افترضنا. فان نزعتهم الى الضرب واستمتاعهم به. او السادية التي هم عليها. دفعت بخيالهم الورع الى تصور نسب العصي. على أنها من محتد يؤول بها الى الجنة. أو على معنى آخر يكون أثر العصي في مثال الطفل هو الإستقامة والصلاح. وبالتالي التهيؤ لدخول الجنة. وهكذا تكتب الجنة لمن تطرق بعرف من أعرافها. وللتعقيب على هذه الإحتمالات جميعا نكتفي بذكر مثل عامي بالغ الروعة من حيث الصدق والواقعية ذلك الذي يقول على لسان الطفل : "اللّي فِيَّا فِيَّا لَوْ كَانْ تَعْطِينِي م العَصَا مِيَّهْ". فقائل هذا المثل تفطن بحدسه الصائب. الى عقم الوسائل الضاغطة وفشلها في اصابة الهدف التربوي.



« عَصَاةَ المدّبْ مِنَ الجَنَّةْ »

وإن الذين نشأوا وشبوا في «الكتّاب». وتجرعوا من ويلات المشرفين عليه التعنيت والتبريح. يعلمون علم اليقين أي وقع في نفوسهم يبلغه التلفظ باسم الكتّاب وباسم المؤدب. ويكفي هذا الشبح المخيف لمثل هذه المؤسسات في نظر الطفل لنتبين مدى تدهور العمل التربوي فيها.

هذا الى ما قد يتحلى به بعض من المؤدبين من عقد و«تخميرات». كانت هي بدورها ناجمة عن تربية الكتّاب والمؤدبين الاسلاف. جعلت بعضا من أهل الفطنة والملحظ الدقيق يشبهون خطورة المؤدب بخطورة العقرب على الطفل، ولهذا كثيرا ما يحذر الطفل... وكثيرا ما نسمع تواصي أهل الفضل بأخذ الحيطة من المؤدب في قولهم : "المِدَبْ وَالعَقْرَبْ مَا فِيهِمْ مَا تقْرُبْ".هذا وسواء أكانت الإذاية المتوقعة مادية أو معنوية . فان تشبيه هذا بتلك ليعطينا فكرة عن مدى أهمية الدور الذي يلعبه المؤدبون في تأديب الاطفال وتربيتهم على صورة من الصور وعلى حالة من الحالات...

تبـــريـــح

ثم ضرب المؤدبيون كما يعلم التونسيون يكون عادة على الارجل بحيث عند الحاجة يطرح الطفل على الارض في شيء من العنف من قبل "الاعْرَافْ" من زملائه، ثم توضع رجلاه في أداة معدة لاحكام ضبط الساقين بما لايمكن للتلميذ الإنفلات أوالتملص والهروب من مخلب الاذاية — وهكذا عندما يحكم مسك التلميذ "بالفلقة" المتكونة من عصا غليظة مشدود اليها حبل سميك، آنذاك يأخذ سيدنا المؤدب في الهوي على رجلي الطفل، باداته المشتقة من اعراف الزيتون عادة. والتي يتفنن في نحتها وزخرفتها . ويظل هكذا يرفع عصاه وينزلها على ساق التلميذ في شيء من الرشاقة والاناقة الى أن يخبو صوت ذلك المسكين، ويتهاوى كلية من هول ما لحقه ، وعناء ما حل به.

وانك لتتساءل معي لماذا هذا كله ؟ كل هذا من أجل نظرية مستسخفة ينزع بها المؤدب وكثيرا ما تدفعه الى القول : "اضْرُبو عَلَى سَاقِيهْ،

تَطْلَعْ الفَهَامةْ لِيَراُسهْ" او انها تسول له الاعتقاد بان "الضَرْبْ يَنْفَعْ مَا يَضرْ".

وانها لطريقة أن يدعى الاب الى حمل ابنه الى "الكتّاب" عن طريق استثارة مشاعره الدينية . ففي قولهم : "يَا سَعْدْ مَنْ حَجْ وِتَابْ. وَحَطْ ولْدُهْ فِي الكتّابْ" ما يجعلنا نرى كيف أن الوالد هو مدعو لحمل ابنه للكتّابْ، لا لما يرجوه له من نفع، بل وأيضا لان عمله ذلك له به كبير الثواب وجليل الفائدة في العاجلة والآجلة ، إذ حمل الابناء الى هذه المؤسسات القروية هو من أهمية الفرائض الدينية الخمس . ومن مستوى التوبة النصوح – وان المفسر عندي لمثل هذه المبالغة في ترغيب الآباء واغرائهم بأهمية وصلوحية الكتّاب، هو مدى ما يلاحظ على الاطفال من نفرة ومن خوف ازاء ما يشاع ويذاع عن حياة هذه المعاهد الإبتدائية. وهكذا عندما عجز المشرفون على هذه الدور التربوية في أن يجتذبوا الاطفال ويحببوا الى انفسهم حياة الكتّاب ، التجأوا الى ممثل السيطرة والقوة في محيطهم العائلي ، فأغروه بالمعاني الدينية والوعود الاخروية. ليفرضوا على أبنائهم ، أحبوا أم كرهوا، الذهاب الى السيد المؤدب .

هذا ولا يفوتنا التنويه بخطورة الرسالة التي قام بها الكتّاب والمؤدبون في المحافظة على التراث الديني، وبالخصوص على كتاب الله تعالى، وسنة نبيه عليه السلام – أما أن يقال بتأثير الكتّاب في انضاج العقيدة، وبتأثير المشرفين عليه في فتح آفاق التفكير الديني . فهذا مما يتشكك فيه الى أبعدحد. ذلك لان الحفظ الآلي او الببغاوي، ان لم يصحبه توجيه ديني ليس له التاثير المرجي في احياء الوجدان الديني. وأيضا مواقف المؤدبين من تسئال الطلبة حيال معاني بعض الآيات ، تجعلنا نوقن بتخلف العمل التربوي الممارس، في هذه المحتشدات المتراصة بالاطفال المتفاوتين في السن، المتباينين في المستوى العرفاني والخلقي... وإذا أنت ادعيت سداد التربية في كثير ممن نشأ وترعرع بين جدران الكتّاب ، فهذا لا يعني أبدا سداد الطرق والوسائل المتبعة من المؤدبين، إذ نحن عند الحكم والتقييم ننظر الى الظواهر الاكثر انتشارا من غيرها، ولا نضلل بحالة أو حالات خارجة عن المألوف

الشائع - ثم نحن عندما نحكم للتربية او عليها انما نراعي النتائج المثالية التي تعجز عن بلوغها تربية الكتّابْ. والاخطار الحقيقة واليقينية التي تحف بعمل المؤدبين وبحياة طلبته. فابن الكتّاب مثلا ان هو تخرج على حافظة وذاكرة قوية، مشحونة شحنا. فهل وعي في تكوينه مثلا. الى جانب هذه الناحية، اعداد جسمه واعداد عقله ليفكر تفكيرا منظما سديدا. فالمفروض في المربي الاعتناء الشامل بمجموع الجوانب التي لا تعد الشخصية ولا تنجح بدون نضجها وتكامل نضجها مع بعضها بعضا .

المحافظة على الطفل

والمعتقد الشائع بين العوام أن الكتّاب لا ينفع المرء الا في الصغر وحداثة السن. ولكم يستفهم العامي استفهاما انكاريا برده لهذه الحكمة القائلة: "بَعْدْ مَا شَابْ هَزّوهْ للكتّاب". إما على معنى تعذر تربية الإنسان بعد فوات الطفولة، أوعلى معنى أخص، وهو أن تعلم القرآن الكريم وحفظه لايتمان الا في الصغر. وظاهر في هذين الحملين المحتملين نوع من الخطل، اذ ما من قائل بانعدام الفرصة أمام الامي. ليرفع غشاوة الجهل والتخلف عن نفسه في كبره ؛ كما أن حفظ كتاب الله تعالى قد يتأتى لكل صاحب همة، نعم للصغير قوة وقابليات. أنشط وأوفر فعالية. الا أن الإنسان في أي طور من أطوار حياته بامكانه أن يعيد تنظيم مدركاته العقلية، وأن يحور من رصيده العرفاني من سيء الى حسن، ومن حسن الى أحسن. وقديما تواصى الناس بالاثر القائل : "اطلبوا العلم من المهد الى اللحد". وبالنظر الى ذلك التخلف الذي كانت وما زالت عليه مواقف المؤدبين التربوية. فان تعرض الاطفال في سنهم المبكرة لمثل تلك التعسفات، يعد من جسامة الوقع والخطورة على حياة الطفل المقبلة، علما منا بأن كتب الصحة العقلية تذهب الى تعليل الامراض النفسية والعقلية باحداث الطفولة، والاحداث ذات الطابع الإنفعالي على الاخص... ومن هنا يكون تأذي الطفل بمعاملة المؤدبين القاسية، أكثر احتمالا كلما كان هذا الطفل صغيرا، اذ في السنين الاولى من حياة الطفل تشتد حاجته الى العطف والحنو، ولعله يفتقر اليهما كافتقاره الى القوت . وأخشى ما نخشاه أن يلقى الطفل النقيض من ذلك العطف في أجواء الكتّاب فينشأ

على حالة غير طبيعية. يكون له فيها الإضطراب وسوء التوافق الذاتي والإجتماعي بالتالي. هذا الى أن حساسية الاطفال تشتد وتعنف كلما كانوا حديثي عهد بولادة. ومن هنا فالحدث البسيط من حيث وقعه في نفوسنا نحن. هو من التأثير القوي في نفسية الطفل. بحيث يهيجه ويتركه مكدودا. والى الابد في بعض الاحايين. ولهذا الإعتبار يكون تعريض الاطفال الى ويلات العنف والضغط من باب بذر العصاب أو المرض النفسي في مجال حياته. وقد لايبدو أثر معاملة المؤدبين في حياة الطفل عاجلا. وانما فيما بعد. وبعد عهد طويل. تأخذ مخلفات عهد التلمذة بالكتّاب في الظهور على نمط أعراض نفسية مثل : الصرع. النسيان. الهستيريا. الهذيان. شرود الذهن. انعدام التوافق بشتى صوره.

وانه لمما يلاحظ مع كل ما تقدم أن بعضا من المشرفين على هذه المؤسسات. قد طوروا من وسائلهم وطرقهم بما جعلهم يقتربون في عملهم التربوي من أعمال المؤسسات التربوية الناضجة. ولكن المأخذ الذي بقي بازائهم هو أنهم يقصرون عملهم على تعليم الطفل القرآن. وحفظ القرآن ليس غير. ففي هذا الموقف خطورة تربوية تتمثل في تقوية ذاكرة الطفل على حساب ملكاته وقابلياته الاخرى. التي لا تقل أهمية عما سواها. فنحن نريد لطفلنا أن ينمو نموا طبيعيا وسليما. في كل جوانبه الشخصية التي يتوقع له بها النجاح في الحياة القريبة أو البعيدة. ففي القرآن الكريم الفائدة الاخلاقية الدينية. والعقائدية الفلسفية. مضاف الى كل ذلك التقدير الإجتماعي والمهابة في الوسط والبيئة العامة، غير أن المواطن الصالح يفتقر الى القوة في شؤون الدين والدنيا معا عملا بقول الله تعالى : "وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا". وهكذا يتحتم علينا توجيه الاطفال في عهودهم الاولى الى امتحان مقدراتهم الطبيعية. وتقوية النافع من الإستعداد الموروث. وهنا يجب الإتجاه الى مختلف نواحي نمو الاطفال في وقت واحد. نواحيه : الجسمية، الحسية، العقلية، العرفانية، الوجدانية، الذوقية، الخلقية الإجتماعية، الدينية العقائدية الخ... ولا نقصر عنايتنا على جانب فقط من جوانبه، على تقدير وان لكل أجل كتاب، ولكل جانب سن معين تجب

فيها العناية . فهذا مالا تقره التربيات الناضجة التي تصر على أن النمو وحدة واحدة وكتلي الإتجاه .

التربية البدنية

وإنه لمما يؤسف حقا أن يكون الكتّاب من الضيق أو من وفرة رواده بما يجعل الظروف الصحية داخله ، ضارة بصحة الطفل . وان الوالد العادي قد لا يفكر إطلاقا في هذه الناحية عند ايداعه طفله بالكتّاب، مثله مثل السيد المؤدب في عدم اعترافه بضرورة ترك الطفل ينشط ليداعد نشاطه على النمو في شتى اتجاهاته. فهو لا يعلم حقا أن عقل الطفل وجسمه وكل قابلياته تنمو بالحركة . ومع بعضها بعضا ، والا لما حبسه وحال بينه وبينها. ولقد يقاس نمط تغذية الطفل الصغير على نمط تغذية الكبار، بحيث نظام الاكل المتبع من الكبار هو عينه المفروض على حياة الطفل داخل الكتّاب. وانه لواضح في هذا الإضرار بحالة الاطفال الصحية . اذ هم لا يقوون على تحمل هذا البعد الطويل بين وجبات الاكل كما هو مستساغ من الكبار. وإن من الآباء والمؤدبين من يرى في الرياضة "هَمْلَةً" و "ضِيَاعْ وَقْتْ" فيما لا يعود على الطفل بالنفع — ومنهم من ينعتها باللعب ازدراء ، لا لانها تسري على الطفل وتشرح له صدره، وتثير فيه غرائزه، وتنشط فيه قدراته . وأخشى ما يخشاه الوالد على طفله اللاعب ايضا هو تمزق ثيابه ، إذ كثيرا ما يقول : "كَثْرِ اللّعِبْ يِقَطَّعْ الحْوَائِجْ" . وهو لا يعلم أن الطفل يدفع الى اللعب تلقائيا غريزيا وان كبته عن اشباعه هذا الدافع الجبلي بطريقة منظمة ، يجعله يتطلب التنفيس عنه بأسلوب أو باخر، وبطريقة أو بأخرى. فلو ترك الطفل يلعب في منظمة رياضية فسوف يعود الى البيت بثيابه وبحذائه على الخصوص سليما. أما اننا نتركه او نفرض عليه انتظاما في السلوك بحيث يقضي طفولته جيئة وذهابا من الدار الى الكتّاب أو المكتب، فعلى الرغم من توفر الرياضة حاليا بالمدارس، فانه على الدوام سيطمح الى الإنطلاق بغير حد أو ضبط. الشيء الذي لا يجده الا بالمنظمات الرياضية — ولعمري كل الذين يلعبون بالشوارع والازقة، انما هم على حرمان من اللعب في بيوتهم أو في الكتّاب، وهم في مواقفهم تلك يشبعون دافعا أصيلا ، أعيق عن غايته الطبيعية بطرق تقليدية جافة.

ولكم نجد من بين اللعبين مع الاطفال الصغار في الشوارع. شبابا كهلا هو الآخر حيل بينه وبين اللعب في الصغر، فأراد التعويض عما حرم منه في الكبر. لما أصبح على شيء من الإستقلال وعلى نوع من الحرية.

التغــــذيــــة

ما تزال التغذية بأوساطنا تقليدية، وغير مراع فيها الصالح من غيره. فالمهم هو المتعة العاجلة اما أن ينظر الرجل العادي الى ما به نفعه ودوام عافيته. فهذا امر صعب، وكم يكره المريض طبيبه لتشديده الخناق على تغذيته - وان أهم ما في تغذيتنا من مئاخذ هو عدم النظر الى القيمة الغذائية والفوائد المنجرة عن تناول الاطعمة - ولعل سبب هذه الظاهرة هو الجهل والتعود معا، لان الاطباء قد يوجهون مرضاهم الى شيء من المعرفة بفوائد أو أضرار بعض الاطعمة اللذيذة، الا أن العادة تجعل الناس لا يقوون على الاكل تارة. والإمساك أخرى. فمثلا نجد خلاصة البقول أوما يسمونه "برُودُو" في عداد أطعمة المرضى حسب النظرة العادية بيننا. ولو دعونا مواطنا عاديا لتناوله فلعله امتنع قائلا : أنا لست مريضا - فهو يشمئز منه حتى لو حببناه له بذكر فوائده الصحية - وبالعكس لو قلنا الى هذا الرجل ذاته ان الإكثار والإدمان على بعض الاطعمة مضر ومسبب لكثير من التوعكات الصحية، لما أمسك عنها. وكثيرا ما تعصى أوامر الطبيب في هذا الشأن ثم يقال فيما بعد : إن الطبيب غير ناجح في وصف الدواء الناجع، ولكم يقول الرجل العادي ببلادنا "اللّي يجِي فيهَا مَا يفْريهَا" عند التخوف من أكل شيء، أو حتى عندما يتأبى أحد الناس من أكل شيء بدعوى أنه غير صالح - فهو يوجه الى الاعتقاد بأن ادخال كل شيء الى المعدة سوف لا يضرها ان لم ينفعها.

نحو احترام شخصية الطفل

إذا سأل الطفل أباه حالة انشغاله في الحديث مع أصدقائه. أو حتى مع كبار العائلة، فانه لا يظفر باجابة قط، واحيانا ان اعار الوالد أذنه لعبيه فلعله فعل ذلك لينهاه وليأمره بالكفاف عن هذا التسئال المستمر... وعن هذا الإستفهام المتواصل... وفي بعض الاحايين الاخرى. قد لا يجاب باجابة صادقة بل باجابة مموهة أو مضللة. ان لم تكن ساخرة ومستهزئة... ثم هل يسمح للطفل بالجلوس مع الكبار ؟ لا أظن ذلك محمودا ومرغوبا فيه.. وحتى عند الاكل. فمائدة للصغار وأخرى للكبار... مثلما توجد مائدة للنساء وأخرى للرجال... أما أن يجتمع جميع أفراد العائلة على مائدة واحدة. فهذا ما لم يطرد وجوده، وان هو وجد ففي الاوساط التي نالت حظا وافرا من التعليم والعرفان – وانك لتجد أحيانا أوساطا عائلية تسمح للطفل بالاكل والجلوس مع أوليائه الكبار، ولكن ذلك مشروط بقيود تفرض على سلوك الطفل ومواقفه، فهو لا يتكلم الا لماما... وان هو تكلم. فبقدر محدود... وبلهجة متحشمة متلعثمة، تنم عن فائق تقديره وعظيم احترامه لذويه... وبهذا يكون تمكين الطفل من فرصة للتعبير عن ذات نفسه لا يكون الا بشروط تضمن اشباع كبرياء الاباء. وكذلك تمكين الطفل من تخير طريقة يعبر بها عما بنفسه من شؤون، فهذا لا يكون هو الآخر بالحرية التي يعطى اياها طفل المجتمعات المتمذهبة بمبادىء التربية الحديثة . ان طفلا – بالإضافة الى ما ذكرنا – لا يسمح له بالنظر الى ذويه الكبار . بحيث يريدون منه دائما الاطراق في شيء من الذلة والمسكنة ، أو على ما يرون – في شيء من الحياء والحشمة، لطفل مضطهد، يدفعنا الكابوس الذي يحيا تحت وطأته. الى الإشفاق عليه والإسترحام لوضعيته. إن مثل هذه الاجواء التربوية ليست هي فقط معيقة لنمو الطفل عقليا ووجدانيا بل هي مميتة، وقاضية قاصمة لشخصيته منذ بدء الوجود. فهل علم الوالد العادي بانه سند وجداني واقتصادي واجتماعي وعرفاني لولده، وإن ابنه هذا عند ما يوجه اليه السؤال مستفسرا ومستوضحا لبعض الشؤون، انه هو في ذلك يفصح عن فعالية عقلية تستدعي مددا يساعدها

على الزكـاة والنمو؟.. وانك لتتسائل ما هو هذا المـدد ؟ هو في اجابـة الوالد.. فبهذه الإجابة حث او اعاقة لنمو تلك القابليات العقلية؟.. وهل علم الوالد العادي ايضا أن معاملة الإبن على أنه ضعيف أو عديم الاهلية . أو على أنه دون الكبار مكانة ومقدرة...من شأنه أن يورث الطفل بذرة الشعور بالنقص وعدم الوثوق بذاته ؟ وهل علم هذا الوالد كذلك بأن طابع الصلة التي تربطه بأبنائه في تلك المراحل المبكرة من حياتهم، سوف تصطبغ به كل صلاتهم المقبلة مع أترابهم ورؤسائهم ومرؤوسيهم ؟ أجل إن أغلبية آباء وسطنا . وعلى الخصوص المتخلفين منهم، لم يحسبوا حسابا لنتائج معاملاتهم وتربياتهم تلك لابنائهم، والا لما فعلوا ما نحن نؤاخذهم عليه... فهم يشكلون تربيتهم التي يتقدمون بها الى ابنائهم، بنواميسهم ورغباتهم الشخصية، ولم يكونوا أبدا مراعين في أوامرهم ونواهيهم غير ما بأنفسهم من طباع وميول. ومن أين لهم تلك المرونة التي تجعلهم يتنازلون عن تلك الطباع والميول أو عن تلك المبادىء والقيم، لما كان في تنحي الأخذ بها نفع يرجى للطفل ومنفعة تتوقع له في العاجل أو الآجل ؟ فكما لو كانت التربية والحالة هذه. ذات مصدر وهدف موحد، هو شخص الوالد ، أما الطفل فكما لو كان أداة ترضية ووسيلة اسعاد او تـأكيد للوالد . فلا ينظر اليه على أنـه كائن مستقل عن ذوات وسطه العائلي بحيث يشعر بوجوده المستقبل، وتفرد له مكانة، وتترك له حرية التعبير، وحرية تخير وسيلة هذا التعبير الحر، وأن يشعر بالطمأنينة والامن في ممارسته حريتي التعبير وتخير الوسائل المعبرة ؛ إن مثل هذه المعاملة سوف تحياها الاجيال الصاعدة. وإن كان من بين أطفالنا من واتاه الحظ في أن يعيش على مثل تلك الظروف الراقية فمثل هذا النفر محدود في عدده، ومقصور على بعض البيئات العائلية القليلة من بلادنا.

وتفصيا من وطأة الشعور بالعجز ، أو تخلصا من حرج الإحساس بالمسؤولية تلتجيء كثرة كثيرة من الاباء الى اتخاذ الكذب مطيـة لربح المواقف العاجلة أو الموقوتة مع الابناء... فهم مثلا تحت الحاح تسئالهم أو تكاثر مطالبهم، ينزعون الى تسويف رغباتهم ومغالطتهم، أحيانا بالمساومة العاقرة، وأخرى بضربهم الوعود الكاذبة. وهكذا يتم لهم بهذا الإجراء خفض التوتر المضني الذي غشي علاقاتهم مع أبنائهم، وهكذا يتخطون عقبة لولاها لماضطربت الحال. ولما تأزمت الافاق العائلية. وهكذا أيضا يعم بهذا الإجراء ذلك البشر المنتظر عند التئام القلوب وتصافح المشاعر ، ثم يتم التغلب آخر الامر على

آفة العوز وتعذر الأرب، باتخاذ هذه الوسيلة القولية ذات الأثر السحري، في نفسية الإنسان من حيث هو غر كريم، وفي نفسية الطفل البريء من حيث هو راغب وراهب كأشد ما تكون الرغبة وكأعنف ما تكون الرهبة..

الصدق مع الابناء

فالوالد عندما يواجه بحاجة ابنه الطفل.. او اليافع.. أو حتى الشاب، كثيرا ما يدفعه، قصوره أو تقصيره.. جهله او تجاهله الى كسب مرضاة ابنه بالمماطلة والتسويف أو بالوعود والترغيب الكاذب. فالاباء في صنيعهم هذا يقولون لك اننا نلتجيء الى هذا الموقف المتخلف اشفاقا بابنائنا من عنت الحرمان المر، ومحبة فيهم أو رغبة منا في اعفائهم من شقوة الشعور بالنقص، أو ترضية لهم ازاء ما أنابهم منا من احباط الطلب أو المطمح الذي يلعم الله، اننا عاجزون عن تلافيه باستجابة الدعوة وتلبية النداء... يقولون لك اننا نحب أبناءنا ولكن من أين لنا المقدرة على تحقيق كل رغباتهم المتلاحقة والممتنعة أحيانا كثيرة ؟!...

الواقع أن وضع المشكلة على هذا النحو فيه شيء من تبرير الموقف المعوج، وفيه شيء من تجنب الحق والجادة : اذ الاباء عندما يموهون أو يكذبون على فلذات أكبادهم او يبررون تصرفهم على النحو الذي ذكرنا، هم في واقع الامر يغالطون أنفسهم في ادعائهم محبة أبنائهم، بل هم يصيبون كل الإصابة لو صارحونا في مصارحتهم لانفسهم وقالوا : اننا نفعل ذلك ونأتي الكذب والمين من القول، محبة لانفسنا وخروجا بها من حزازة الضيق الذي نشعر به ونحن نكابد ونصارع شقوة آمال الصغار والكبار من الإنجال" ـ. ذلك هو موقف الاباء على حقيقته فهم عندما يكذبون ويغالطون أبنائهم هم يغالطون أنفسهم ويكذبون عليها.. وهم أيضا لا يغالطون أبنائهم محبة فيهم كما يقال... بل يفعلون ذلك تأثرا منهم بأنانيتهم... ثم ما يقال أيضا من أن الاخبار الكاذب او الوعد العاقر، يلتجيء اليه الوالد بدواعي الرأفة والشفقة، مثل هذا الإدعاء محض اختلاق وتبرير، إذ الرأفة والشفقة تكون بتمكين الطفل من معرفة حدود الطاقة الإنسانية، ومن معرفة طبيعة الممكن من المستحيل... ومحبة الإبن أيضا تتمثل في مصارحته وفي إعطائه ما هو في حاجة اليه من زاد معرفي وخلقي، وفي تعويده مجابهة الواقع على ماهو عليه وعلى مجابهته على أي وضع كان.

فبدلا من الكذب أولى بالوالد أن يقول لابنه : "المَوْجُوْدْ رَخاءْ" أو انه يسليه في غيرما التزام أو تعهد كان يقول له : "اللعينْ اللّي بكيتْ لازِمْ تَضْحَكْ" أو انه يمده بنظرة صادقة عن طبيعة الوجود في حدوده الواقعية كأن يوعز اليه بتدبر الحكمة التقليدية التي تقول : "حلْووُمرْ حتّى يتعدّى العمُرْ". ففي هذه المحادثات تمكين للطفل ليعمل عقله في دنياه، وليتدبر من شؤونها ما يخول له النجاح إن عاجلا أو آجلا. وأولى بالوالد الحاني على ابنه بكذبه عليه، وتشويهه الحقائق في نظره.. أولى به أن يعزف عن الأخذ بذلك المثل القائل : "مَا تحدّثْشي صغيرِكْ، والا يولّي خصيمِكْ". وهل من أحد يعوض الاب في اخلاصه الحديث ونصحه حتى نريد به ابدالا أو ابعادا أو قطيعة في هذا الطور الذي يحتاج فيه الطفل، الى التعرف على كل شيء. فنحن إذ نهتدي بهذه الحكمة، بما أخذناها على أنها توصي بمقاطعة الإبن حفاظا على ناموس الأبوة، بحيث ينبغي الإبقاء على الإتصال المادي به، والإحتراز فيما عدى ذلك من الحوار والتحادث معه في شيء من الجدية والصراحة. فهذا ماتقول به هذه الحكمة التقليدية وهذا ما به مضرة للطفل، وان خيل للاباء الرجعيين في التمذهب بها النفع والسداد... ذلك لان احترام الطفل وتقديرنا لشخصيته يتمثل بالخصوص في تركنا له الفرصة في أن يبوح بما يخالجه من أحاسيس واراء. ثم نحن لا نفهم هذا الطفل وبالتالي لا نقدر على نفعه ان نحن قطعنا به صلة الحديث... ولكم يحز في نفس هؤلاء الاباء أن كانوا على جهل بحقيقة أبنائهم في قولهم بهذه الحدود الشكلية. والذي يزيدهم أسفا - لو علموا - أن الغرباء من جيران وغيرهم أعلم من الاباء بمجريات أمور أبنائهم، لماذا ؟ وكيف يكون ذلك.؟ لان الوالد هو نفسه الذي قضى بالا يتكلم ابنه الا بمقدار... وان هو تكلم معه ففي مواضع معينة - وبأسلوب وطريقة محددة من هذا الوالد...

ان هذا الوالد - ان كان حقا على حنو بالغ، وعلى غير فهم صائب لمسؤولياته التربوية، جدير به أن يروض ابنه على تقبل الحياة في لبوسها القشيب، في ثوبها الرث، في ابتسامها الخاطف، في عبوسها وتقطيبها المتجهم... أولى به أن يفعل ذلك فلا مغالطة أو كذب بل الحق اولا وآخرا، الحق الصراح الحق كيفما كان .. حلوه ومره .. عسيره ويسيره، انه بهذا السلوك وبهذا فقط يكون حانيا عطوفا على ابنه الذي هو أمانة في عنقه...

ثم باعتبار آخر مثل هذا الوالد الجافي الذي لا يحترم ابنه ولانفسه ، بكذبه على ابنهوعلى نفسه، انما هو في واقعه ذلك صورة مثلى (أوكما يبدو) في نظر ابنه، ولسوف يرتسم هذا الإبن خطا والده محاولا شعوريا اولا شعوريا محاكاته في سلوكه،وفي كل بوادره، وفي كل استجاباته،وحتى في اشار اته وطريقة نطقه. فالإبن حينئذ ينحو دواما الى تقمص شخصية والده : هذه الشخصية هي التي يحتذيها في سلوكه المبكر،وبالتالي في اتخاذه طابعه الشخصي، الذي سيعنون ذاتهفي المجتمع الذي سيتصير لهفي يوم قريبأو بعيد. فهو يحاول اشتقاق صورته أوذاته على غرار شخصية والده. بحيث يحاول جهده أن ينسخ منها صورة له، ويجتهد في أن يكون طبقا للاصل في كل جزئية... ومن هنا هل علم الاباء الكذابون كيف تكون مثال أبنائهم وعلى أي صورة سيكون ؟! انهم لو علموا لأتوا الصدق من قول و لاحترموا ابنائهم ولاعطوا شخصيةالطفل التقدير اللازم ، ولأتاحوا له فرصة لامتحان الحياة في حدودهاالهينة والشائكة . وقديما قال التونسي لأمرأته "هدة" : "رَبِّي وِلْدِكْ يَا هِدَّةْ عَلَى الرَّخَا والشَّدَّةْ" .



« الكَلامْ الوَجَّاعْ نَفَّاعْ »

— الفهرست —

صفحة

تصويب الاخطاء

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
23	7	جببناها له الوسائل	حببناها له بشتى الوسائل
29	26	ومتنقصة	ومنتقصة
37	19	الوراث	الوارث
43	24	باهضا	باهظا
58	20	اوضحا واوضحا	اوضح واوضح
59	4	أشعار	اشعار
61	12	اذ هو بحمل	اذ هو يحمل
65	27	الحقيقية	الحقيقة
67	14	سلى	سلبى
80	1	تتويجا	تتويج
101	8	باثر	باثر
104	4	تـ بيتنا	تربيتنا
105	7	على أنها	على أنه
106	14	المؤدبيون	المؤدبين
115	11	دبما	ربما
116	11	تكون	يكون

البشير الزربي

استاذ مجاز

التربية التونسية

في

الأمثال العامية

تقديم

محمد مزالي

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



الاستاذ البشير الزريبي

- من مواليد القيروان سنة 1926
- شهادة « الثقافة العامة » من كلية الآداب بالجامعة السورية سنة 1952
- الاجازة من قسم الدراسات النفسية والاجتماعية بجامعة « عين شمس » المصرية سنة 1956
- استاذ بالتعليم الثانوي التابع لكتابة الدولة للتربية القومية منذ سنة 1956
- درس مادتي التربية وعلم النفس في المعاهد التالية :
  - الجامعة الزيتونية
  - ابن خلدون الثانوية
  - ترشيح المعلمين التابعة للتعليم الابتدائي
  - مدرسة التربص التكويني ببئر الباي التابعة لادارة الشباب والرياضة
  - مدرسة التمثيل العربي
- باشر العمل الصحافي والثقافي ضمن اسر تحرير
  - « العمل » لسان الحزب الحر الدستوري التونسي
  - « الفكر » المجلة الثقافية التونسية
  - « الشباب » لسان الشبيبة الدستورية
- يعد اطروحة للاحراز على لقب « الدكتوراه »
- انجب اربعة ابناء

السلسلة الثقافية

مجموعة من البحوث الاجتماعية النفسية ، تهتدى بوحي من بعض الفقرات الواردة بهذا الكتاب حيث يقول مؤلفه :

« ان الثقافة الحق هى تلك التى تتخذ لها من الخصائص الشعبية مصدر وحى والهام ، ومجال عمل وبعث فى وقت واحد • وليست هى ابدا ذلك النوع من التربية العالية التى يتحصل عليها بعض الناس من المعاهد الراقية »

« ان الثقافة بمعناها الاثنوغرافى الواسع ، هى ذلك الكل المركب الذى يشمل المعرفة والاعتقاد ، الفن وقواعد الاخلاق ، التربية Complex Whole والقانون ، العادات الاجتماعية والتقاليد المرعية ، وغير ذلك من القدرات والعادات الشخصية التى اكتسبها الانسان من حيث كونه عضوا فى مجتمع معين »

« لا يمكن تصور مدلول الثقافة فى تلك الخصوصية التى داب بعض المتعلمين عل حصرها فيها ، حتى انها لا تشير ، فى نظرهم ، الا لهذه الناحية الفكرية ، الوجدانية , النزوعية التى حصلت عليها طائفة محدودة من افراد المجتمع •»

« فالثقافة الحق أولى ان يكون المقصود بها تلك الظواهر التى هى اكثر انتشارا واوسع مجالا بين المجتمع • فاذا كان للطبقة المتعلمة فى بلادنا ثقافة مميزة ومتميزة ، فللسواد ايضا ثقافته المميزة والمتميزة • واذا كان لتلك نفوذ وسلطان فلهذه ايضا نفوذ وسلطان • وان مثل هذا المعتقد هو الذى حدا بى لكتابة هذه الفصول التى قصدت بها محاولة الكشف عن جانب ، من جوانب ثقافتنا التونسية ألا وهو النظرة التربوية الشائعة بين السواد والاكثرية ، وما تمليه هذه النظرة من مواقف تربوية سوية ومرضية •» (Anormal »

« لقد دفع بى الى هذا العمل اعتقادى بجدواه ، وايمانى بجدته وطرافته معا • عل ان الفائدة التى قصدت اليها ابتداء لم تكن قاصرة عل الرجل العادى ، بل هى تجتازه الى عموم المربين والمثقفين التونسيين •ذلك لان مهمة هؤلاء ومسؤولياتهم الجسام ازاء مجتمعهم ، لم تكن ابدا ميسورة ولا ممكنة ، ان لم يكن هؤلاء المتعلمون انفسهم قد اخذوا فكرة واضحة الملامح عن حدودهم الذاتية ، فى ماضيها وحاضرها ، فى صلتها بالمجتمع الذى منه الانحدار وله العمل من اجل نفعه النفع المرجى •»

طبع ونشر الشركة التونسية لفنون الرسم